طعم العصافير

قصص قصيرة

العنوان: طعم العصافير
النوع: قصص قصيرة
المؤلف: الدكتور أحمد زياد محبك
الهاتف الجوال والواتس: ٠٠٩٦٣٩٤٤٩٢٨٧٩٢
البريد الرقمي: mohabek@gmail.com
دار النشر: دار القلم العربي . حلب
الطبعة الأولى: ٢٠٠١
لوحة الغلاف: للفنان مطيع يازجي

الدكتور أحمد زياد محبك

طَعم العصافير

قصص قصيرة

دار القلم العربي . حلب

٢٠٠١

في حياتي كلها، وأنا الذي بلغت الخمسين، لم أر مثل تلك المائدة، هي مثل ماكنت أراه في الأفلام، أو أسمع عنه، أو أتخيله، أو أحلم به. لا يمكنني في الواقع أن أصفها، عشرات الصحون والأطباق، وكأنها جزر وعواصم وقارات امتلأت بها المائدة، وفيها أشكال وأصناف لا عدّ لها ولا حصر. وسرعان ما امتدت الأيدي، وارتجت الألغاد تحت الذقون، وانتفخت الأفواه، هذا كله لم يكن غريباً، فهو أمر مألوف لمجموعة من التجار التقوا على مائدة أحدهم، ليتناهبوا ما فيها، كما يلتقي الكبار أمام خريطة العالم.

ولم يكن وجودي هو الغريب، فقد دعيت بإلحاح، فأنا أعمل منذ أربع سنوات تقريباً عند أبو جميل صاحب المأدبة، أترجم ما يصله من رسائل، وأكتب بالإنكليزية ما يرسله إلى الشركات الأجنبية من جوابات، عملت مدرساً نحواً من ثلاثين عاماً، درّست في الأرياف وفي المدينة، وفي المدارس الرسمية والخاصة، وأعطيت دورات تقوية باللغة الإنكليزية لطلاب الشهادتين الإعدادية والثانوية طوال عشرين سنة أو أكثر، بالإضافة إلى الدروس الخاصّة، وكان من طلابي أولاد تجار ومسؤولين، وما دعيت قطّ إلى مثل هذه المأدبة، واليوم بمناسبة افتتاح أبو جميل محلاً جديداً، يضاف إلى محلاته الكثيرة، كانت هذه المأدبة، وقد دعاني بإلحاح، ولولا إلحاحه ماكنت حضرت.

على كل حال، ليس هذا بالغريب، إنما الغريب هو بعض الأطباق، لا أعرف لماذا تكاد الأيدي لا تمتد إلا إليها، فيها كائنات صغيرة، لم أتبين ماهي، يبدو أنها قليت بالزيت، فهي محمرّة، والأيدي تنهال عليها، وأسمع لها تحت الأضراس طقطقة، وهي على ما يبدو تؤكل كاملة. هل هي أسماك صغيرة؟

وينادي أبو نزار:

" **هات، هات من هذه العصافير، هات طبقين ثلاثة** "

ويتنبّه أبو حسّان، وهو بجواري، إلى جمودي، وعدم تناولي أي شيء، فيمدّ يده إلى طبق من أطباق تلك الكائنات الصغيرة، يحمله، يضعه أمامي، وهو يقول:

"**هذا من حصة الأستاذ، ما أحد فيكم انتبه، حتى الآن، ما ذاق الأستاذ أي عصفور**"

ويعلّق أحدهم، وهو أبو القاسم، ولم أكن أعرفه من قبل، وقد عرفني إليه أبو جميل، قبل قعودنا إلى المائدة.

"**حبيبي، قل للأستاذ: العصافير لا تجيء إلى الصياد، قل له: الصياد الشاطر هو الذي يصطادها**"

ويردّ أبو جميل مازحاً:

" **الأستاذ عماد، ما هو صياد، مثلنا، ولذلك واجبنا نحن أن نكرمه**"

ويضيف أبو القاسم:

" **كلامك صحيح يا أبو جميل، وليعذرني الأستاذ، كنت أمزح فقط، وليعتبرها بداية لصداقة**"

وأردّ:

" **وهي كذلك**".

ويعلو صوت أبو نزار مقهقهاً:

" **إذا كان الأمر يتعلق بالصيد، إذن، هات هذا الصحن إلى قدامي**"

ويمدّ يده إلى صحن مملوء بتلك الكائنات الصغيرة، يرفعه، يضعه أمامه، أصابعه الغليظة تمسك بكائن صغير، يتأمله بعينين نهمتين، وبطريقة تمثيلية مبالغ فيها، يقول له:

" **هَمْ، هَمْ، تعال، تعال**"

ثم يلقي به في فمه.

ويسأله أبو جميل:

" **يبدو بينك وبين هذا العصفور ثأر قديم**"

ويردّ أبو نزار:

" **مع هذا العصفور فقط ؟؟ لا، لا، كل العصافير، كلها بيني وبينها ثارات لا تنتهي**"

وتنطلق الضحكات من الأفواه المملوءة.

ويسأل أبو جميل:

"**وما هذا الثأر، يا أبو نزار؟**"

" **سيارتي، سيارتي يا أبو جميل، دائماً تسلح عليها هذه العصافير، زَرْقُها يحرق الطلاء حرقاً**"

ويمد يده إلى عصفور آخر، وهو يضيف:

" **تعال، تعال أنت، والله لن أترك في الدنيا أي عصفور**".

ويتدخل أبو القاسم، فيعلق:

"**لا تضع سيارتك، بعد اليوم، تحت الشجر**"

" **حتى لو وضعتها تحت السماء، فالعصافير، بنت الحرام، لا يحلو لها إلا أن تسلح عليها**"

هكذا يردّ أبو نزار.

ويتكلم أبو القاسم ثانية، فيقول:

"**مشكلتي أكبر من مشكلتك**"

ويقاطعه أبو نزار:

" **قل ثاري أكبر من ثارك، هات، لنرى**"

ويتابع أبو القاسم كلامه، فيقول:

" **ثاري يا أبو نزار مع العصافير على الطريق أطلق بوق السيارة، وهي –كما قلت– بنت الحرام، لا تطير إلا في آخر لحظة، والمشكلة أنها تطير جماعات جماعات، عشرين ثلاثين، وتضرب مقدمة السيارة، ولا بد بعد ذلك من الذهاب إلى المصلح، هذه العصافير كرّهتني السفر**"

ويضيف أبو نزار:

" **الحق معك، هذه العصافير ظالمة، انتبه إلى الأمر، من أجل المبرّد، والله هذه العصافير من الممكن أن تضربه، وتضطرك إلى تبديله ... أنا سمعت مرة عن طائرة وقعت ودمرت ومات أكثر من مئة راكب، بسبب عصفور ضرب المحرّك**".

" **إذن، هات، هات، حتى ننفي جنس هذه العصافير الملعونة** "

هكذا يعلق أبو جميل.

وتنقض الأيدي على الأطباق.

ويتكلم أبو القاسم:

" **أنا أحلى شيء عندي هو الخروج إلى البرية في الصباح الباكر، ما من أجل أي شيء، غير صيد هذه العصافير، هل تعرف، بطلقة واحدة من الجفت، ترمي عشرين عصفوراً**"

ويتكلم أبو نزار:

" لا طلقة، ولا برِّيَّة، ولا جفت، أنا أذهب إلى سوق الدجاج، ومن دكان صاحبي أبو رفعة، أشتري مئة عصفور، مذبوحة ومنتوفة الريش ومنظفة"

ويرد أبو القاسم:

" والله، أنا لا أهنأ، ولا أجد سعادتي، ولا سروري، إلا إذا أمسكت العصفور بيدي، ونتفت ريشه، وشققت بطنه، وشويته بيدي، صدّقني أحس بطعمه أطيب"

ويقضم رأس عصفور، ثم يضيف:

" أنا، لما كنت بعمر ابني قاسم، حوالي خمس عشرة سنة، كان عندي بارودة خردق، كنت أحملها، وأطلع في الليل مع أولاد الحارة، ونمشي في الزقاقات الضيقة، وكان معظم البيوت فيها أشجار توت، وكانت أغصانها تغطي الزقاق، ابن جارنا، الله يرحمه، كان صاحبي، هو يحمل مصباح جيب، ليسلط الضوء على الأغصان، وأنا أصوب على العصفور، وهو نائم، ما كانت تضيع مني أي خردقة، كل خردقة بعصفور، وكل عصفور بخردقة، مرة، اسمعوا حتى أحكي لكم، طلع لي رجل عجوز، وقال لي: "حرام يا بني، حرام، العصافير نائمة، كيف تصطادها وهي نائمة"، قلت له : ياعمي إذا جاءها الموت وهي نائمة، أفضل من أن يأتيها وهي صاحية "

وينفجر الجميع في الضحك، وتعلو القهقهات

ويتكلم أبو جميل:

" ذكرتني، أنا لما كان عمري في هذه الحدود، أو أقل، حوالي اثنتي عشرة سنة، كنا نعيش في دار عربية، لها فناء واسع، وفيها شجرة توت كبيرة، كنت في الليل أتسلق الشجرة وأبدأ بمسك العصافير، كنت لا أنتظر حتى أنزل من الشجرة لأذبحها، كنت أفصل رأسها عن جسدها، وأرمي بها لأخي محمود، وهو تحت الشجرة، يلقطها، وكان جدي الله يرحمه يقول لي: حرام يا بني حرام، وأنا أقول له: الله خلقها للذبح "

ويتكلم أبو نزار:

" لا حرام ولا حلال، هذه العصافير تستحق الذبح، لأنها خسيسة، هل يعرف أحد منكم قصتها؟ ولماذا سموها عصافير الدوري؟ "

" لا والله، لا نعرف"

" **لا نعرف**"

" **اسمعوا، أنا أحكي لكم، حكى لي جدي، قال كان في قديم الزمان طير، وهذا الطير حجمه وسط، لا هو كبير، ولا هو صغير، وهذا الجنس من الطير انقسم إلى جماعتين، جماعة نزلت في الصحراء، فأخذت تبحث عن رزقها، الطائر منها يطير، ويحلق، ويرى فريسة، فينقض عليها، وهكذا، ولطول ما طارت هذه الطيور، وحلقت، واصطادت، قويت أجنحتها، وأصبحت مخالبها حادة، ولأنها كانت تتغذى باللحوم، أصبحت كبيرة، وهذه هي النسور والصقور التي يضرب بها المثل** "

ويقاطعه أبو جميل:

" **هذه الطيور مثلنا**"

ويعلق أبو القاسم:

" **الله يديمك ويعزك يا أبو جميل** "

ويسأل أبو جميل:

" **والجماعة الثانية من الطيور، يا أبو نزار؟** "

" **الجماعة الثانية يا صديقي نزلت في المدن، وأخذت تعيش على فتات الخبز، وترضى بما يرميه لها الناس من حب، ما اصطادت ولا طارت ولا حلقت، رضيت بالقليل، مثل الفقراء الشحاذين، الله يجيرنا منهم، ولا يرينا وجوههم**"

ويقاطعه أبو جميل قائلاً:

" **كل يوم أكثر من عشرين شحاذاً يأتي إلى المحل، ما إن تصرف واحداً حتى يأتي الآخر**"

" **اصرفهم، اصرفهم يا أبو جميل، ولا تعوّدهم عليك**"

" **صدّقني الواحد منهم أغنى مني ومنك**"

" **على كل حال اترك قصتهم، خليهم للشحاذة، الله خلقهم شحاذين، واحكي لنا يا أبو نزار عن الجماعة الثانية من الطيور، ماذا جرى لها** "

" **هذه الجماعة من الطيور، مثل هؤلاء الشحاذين، عاشت على الفتات والشحاذة، وطوال عمرها ما ذاقت اللحم، ولذلك، ضعفت، وصغرت، وصارت تعيش في شقوق الجدران، في الدور**"

" **آه، الآن فهمت، ولذلك سموها عصافير الدوري**"

" نعم، هذا صحيح"

" الحمد لله، عاشت في الدور، لا في الفيلات ولا في القصور"

" ولذلك صيدها حلال"

" صيدها حلال وواجب"

" صدقت، صدقت يا أبو نزار "

" إذن، هات، هات من هذا الواجب "

ويسود الصمت، لا تسمع فيه سوى أصوات الأضراس وهي تطحن وتعجن.

ويسأل أبو جميل:

"إيه يا أبو طارق، ما حكيت لنا أي شيء عن العصافير؟"

بعد صمت طويل، يتكلم أبو طارق:

" أنا ما اصطدت أي عصفور، ولكن، كنت، وأنا شاب، على موعد مع واحدة، ولبست قميصي الجديد، آخر زي، ما لبس أحد مثله، كانت أول مرة ألبسه، لبسته ومشيت، الدنيا كلها لا تكاد تسعني، شاب، وابن تاجر، جيبي مليان، وكما يقول المثل: يأرض اشتدي، وما حدا قدّي، وفوق هذا كله، أنا ذاهب لألتقي بواحدة، ما خُلِق مثلُها، الله يستر عليها، المسكينة، لا أعرف ماذا صار فيها، لأنها تورطت معي، هي صدقت، وأنا ورطتها، صحبتنا استمرت ثلاث سنين، أخذت منها زهرة شبابها، ولكن، حتى هذا الوقت، لا أعرف مصيرها، المهم، في هذه القصة، أني، وأنا ذاهب إلى لقائها، وإذا عصفور طاير يسلح على القميص".

" الله يقطع نسل هذه العصافير"

" لا، لا، ادع الله يزيد في نسلها"

" ولماذا؟"

" حتى نحسّ بطعمها تحت أضراسنا "

" الحق معك "

ويلتفت إليّ أبو جميل ليقول لي:

" إيه أستاذ، حتى الآن ماذقت العصافير؟ هل حلفت أنك لا تذوقها؟ "

وأجيب:

" لا، لا، أبداً"

ويمد يده إلى الصحن، يأخذ عصفوراً، يناولني إياه بيده، آخذه منه، أتأمله.
ويتكلم أبو نزار سائلاً:
"إيه أبو حسان، أنت حتى الآن ما حكيت لنا أي شيء عن العصافير ؟"
ويعلق أبو القاسم:
" أنتم ما تركتم له أي شيء حتى يحكيه، ما شاء الله، كل واحد منكم عنده ملحمة عن العصافير"
ويتكلم أبو حسان بهدوء:
" الحقيقة، أنا ما عندي أي مانع في تناول العصافير، وصيدها وذبحها، ولكن المشكلة في القصد والنية"
ويسأل أبو نزار:
" كيف؟ ما فهمنا؟ "
" الحقيقة، من غير المناسب إنسانياً أن نتلذذ هكذا في في ... لا أعرف ماذا أقول، من المعقول والطبيعي أن نصطادها وأن نأكلها، ولكن صيدها وهي نائمة، والتفاخر بصيدها وأكلها، والانتقام منها، هذا كله، لا أعرف كيف أعبر، أحس أنه شيء يقشعر له البدن "
وينفجر أبو نزار:
" يا ليتني ما سألتك؟"
ويرد أبو حسان:
" لماذا زعلت؟ أنت سألت، وأنا جاوبت"
ويرد أبو نزار:
" بالله عليك، أجبني، أنت إذا بعت بيعة لواحد غشيم، وطب هو في البيعة، وربحت أنت ضعف ماكنت تحلم، بالله عليك، جاوبني من كل قلبك، ما هو شعورك بمثل هذه البيعة، وهذا المشتري؟"
" والله لا أعرف كيف أجاوبك؟"
ويصيح أبو نزار:
" أنا أجاوب بدلاً عنك، هذه البيعة أجمل ألف مرة، من بيعة لواحد ذكي مفتح العينين، قل لي: صح، أو خطأ؟"
ويرد أبو حسان:

" **لا صح، ولا خطأ**"

ويصيح أبو نزار منفجراً:

" **صح، وألف صح، والله كل واحد منا لا يهنأ في بيع ولا في شراء، إلا إذا وقع بين يديه عصفور أو غشيم**".

ويرد أبو حسان بهدوء :

" **حرام، حرام يا رجل، لا تقل هذا الكلام**"

ويرد أبو نزار:

" **ولماذا نكذب؟ هل بيننا أحد غريب، كلنا تجار، وكلنا يعرف بعضنا بعضا، والأستاذ، ما هو غريب، هو مطلع، ويعرف كل شيء، أصبحت يده معنا في العمل**".

ويرد أبو جميل:

" **اتركونا من العمل والشغل، وخلّونا مع العصافير، هات يا أستاذ، هل عندك قصة مثلنا عن العصافير؟** "

ويعلق أبو القاسم ممازحاً:

" **خلوا الأستاذ يحكي لكم عن الزوازو**"

ويسأل أبو نزار:

" **وما هذه الزوازو؟** "

ويرد أبو القاسم:

" **هذه تعني العصافير بالفرنسية** "

ويعلق أبو نزار:

" **الله أكبر، الله أكبر، أبو القاسم يتكلم الفرنسية** "

وينفجر الجميع في الضحك.

" **إيه أستاذ احكي لنا عن العصافير**"

ويخيم الصمت، أنظر في الوجوه، أتردّد، والعصفور الذي حملته، ما يزال بيدي، أتكلم:

"**الواقع، أنا دائماً أحلم بالعصافير، ربما منذ أيام الطفولة، وحتى الآن، ما أزال أرى في الأحلام عصافير كثيرة، ملوّنة، بعضها يحط، وبعضها يطير، تزقزق وتغرد، تقترب وتبتعد، أكاد أمسك بها، ولا أمسكها، أحسّ بها ناعمة رقيقة** "

ويسألني أبو نزار:

" **وكم عصفوراً، يا أستاذ، أمسكت حتى الآن؟** "

ويرد أبو جميل:

" **عصفور واحد، وهو ما يزال بيده، ولم يأكل منه حتى الآن سوى جناحه، وجناحه الأيمن، على ما يبدو لي**"

ويعلق أبو نزار:

" **يبدو لي الأستاذ ليس عنده ثأر مع العصافير** "

وأتكلم:

" **الحقيقة، عندي قصة طريفة** "

ويرد أبو نزار مشجعاً:

" **هات، هات أسمعْنا** "

" **مرّة، وأنا في الخامسة عشرة أو السابعة عشرة، كما قال أبو القاسم، زرت بيت خالي، كانت ابنة خالي في الثانية عشرة تقريباً من عمرها، أو الثالثة عشرة، أنا في المرحلة الثانوية وهي في المرحلة الإعدادية، حدثتني أن مدرسة الرسم طلبت منها أن ترسم صورة تمثل الشتاء، وهي تحار لا تعرف كيف ترسم تلك الصورة، فرسمت أنا لها نافذة تقف وراءها طفلة في عمرها، لها ضفيرتان، تطل من ورائها على السهول المغطاة بالثلوج، حيث تظهر بعض الأشجار عارية، أغصانها ناحلة، ثم رسمت عصفوراً يحطّ على طرف النافذة، وكأنه يلتجئ من البرد إلى الدفء، ثم أكملت الصورة وجعلت جزءاً من النافذة مفتوحاً، بما يوحي بأن العصفور سيدخل إلى الغرفة ليجد الدفء**"

ويسأل أبو نزار:

" **وبعد ذلك؟ هل دخل هذا العصفور؟ أم لم يدخل؟** "

وينفجر الجميع في قهقهات عميقة

ويضيف أبو القاسم، وهو يغص بالقهقهة واللقمة في فمه:

" **دخل وانذبح وانشوى**"

ويعلق أبو نزار:

" **اتركوا الأستاذ يكمّل القصة** "

" **الحقيقة، دارت الأيام، ومرت، وصار النصيب، خطبت ابنة خالي وتزوجتها، وصار عندنا أولاد شباب، وإلى اليوم ماتزال ابنة خالي تحتفظ بتلك الصورة**"

ويعلق أبو نزار:

" **وكلما جعت أنت وزوجتك رجعتم إلى هذا العصفور، وشويتموه وأكلتموه**"

ويتدخل أبو جميل :

" **يا أبو نزار، يا أبو نزار، مضينا الليلة كلها على العصافير، الله يرضى عليك، احكي لنا عن شيء آخر** "

ويتدخل أبو حسان:

" **الحقيقة أنا كنت سأحكي لكم حكاية تشبه حكاية الأستاذ، وكنت خجلان، ولكن الأستاذ شجعني**"

" ويعلق أبو نزار أيضاً:

" **وأنت أيضاً رسمت لزوجتك عصفوراً؟** "

ويتكلم أبو حسان:

" **لا، أنا زوجتي هي رسمت لي عصافير، عصافير كثيرة، ملونة، طرزتها باليد، بالخيط والإبرة، على الوسادة، على ملاءة الفراش، على ملاءة اللحاف، عصافير تطير، وعصافير يزق بعضُها بعضَها الآخر، عصافير ترف، وعصافير تحط على أغصان، وأجمل عصفور، تعرفون تلك الأيام، كانت العادة أن تقدم العروس إلى زوجها هدية، أجمل عصفور طرزته لي على منديل حرير أبيض**"

ويعلق أبو نزار:

" **الله، الله، وما زلت تحتفظ بهذا المنديل؟** "

ويدب الحماس في أبو حسان، ثم ينهض، يدس يده في جيبه، وهو يقول:

" **نعم، نعم، هو معي، في جيبي، ما أزال أحتفظ به، بل ما أزال أحمله حيثما ذهبت**"

ثم يخرج من جيبه منديلاً أبيض، وهو يقول:

" **هذا هو**"

وبسرعة البرق يخطفه أبو نزار، وإذا هو في يده، وهو يقول:

" **إذن، هات هات هذا العصفور حتى نأكله** "

ويهم بمسح فمه بالمنديل

ويصيح به أبو حسان:

" **والله إذا ما أعدته إلي ذبحتك ونتفتك مثل العصفور**"

العصفور في المنديل يزقزق، العصفور يرف بجناحيه، يفرّ من قبضة أبو نزار، يطير، يحلّق، يرفّ، يدوّم، يحوّم، التجار ينهضون، يتقافزون، كل منهم يمد يده القصيرة المتورمة بأصابع زئبقية للإمساك بالعصفور، والعصفور يرفّ مذعوراً، يحلّق.

أنظر إلى أبو حسان، تلتقي أنظاري بأنظاره، أراه هادئاً في مكانه لا يتحرك، يهزّ رأسه، يبتسم، يهمس لي :

" **لا تخف، العصفور لن يمسك به أحد**" .

وأسمع صوت أبو جميل:

" **يا جماعة، يا جماعة، لا تكدروا السهرة، يا أبو نزار، الله يرضى عليك، رجّع لأبو حسان المنديل**"

أبو نزار يتكلم:

" **سأرجعه إليه، ولكن بشرط** "

" **هات شرطك، وأنا عليّ التنفيذ** "

هكذا يتكلم أبو جميل.

ويتكلم أبو نزار:

بشرط أن يأكل الأستاذ العصفور الذي بيده، لأنه حتى الآن لم يأكل غير جناح واحد"

ويتدخل أبو جميل:

" **لا يا أبو نزار، لا تحرج الأستاذ، أرجوك أعد المنديل إلى أبو حسان**"

وأتكلم باندفاع:

" **أعد المنديل، وأنا سآكل عصفورين** "

ويعيد أبو نزار المنديل إلى أبو حسان

أبو حسان يتلقف المنديل، وهو ينظر إليّ، يطويه، يضعه في جيبه.

أمسك بأنملتين اثنتين عصفوراً، أنظر فيه، أحدّق في أبو نزار، أحسّ طقطقة في العظام.

*

وعلى المائدة، يسقط عصفور ذبيح، يتخبط في دمه.

- ١ -

أُحِسُّ بالباب يفتح، وبرجل يدخل، وأنا مكبّ على ملف بين يدي، أدقّق في أوراقه.

أُدرك أنه أبو سائر مسيّر المعاملات، فليس سواه من يفتح له الآذن الباب، ليدخل عليّ من غير استئذان، هكذا قد تعوّد.

أرفع رأسي، فأراه يطل عليّ بوجهه الفأري، متأبطاً ثلاثة ملفات، يتقدم مني، يطوي الملف الذي أمامي، يزيحه، يضع بدلاً منه الملفات الثلاثة التي يحملها، ورائحته النتنة تزخمني، يضغط على يدي، بخر فمه يخنقني، وهو يصبّ في أذني صوته الأبح:

- سأوصي لك بفنجان قهوة لم تشرب مثله من قبل، ريثما توقع على هذه الملفات المستعجلة، أصحابها مساكين.

عباراته هي نفسها التي يعيدها كل مرة بصوت أبحّ جاف كمعدن صدئ.

ويخرج من جيبه علبة تبغ، يعيدها إلى جيبه، وهو يغمغم " لأ، ليست هذه"، يخرج علبة أخرى، يفضّها بأصابعه القصيرة الممتلئة، يستل سيكارة، يقدّمها إلي، ثم يضع العلبة على المكتب أمامي.

أستسلم لوجهه وبخره وزخمه وبُحّته، أغرق في أذنيه الكبيرتين، وشدقه الأهرت، وأسنانه السوداء النخرة.

يوليني ظهره ويمضي، كأنه، أو كأني، كلب أجرب.

أنظر إلى الملفات، وقد ارتمت بين يدي، مثل كأس نتنة عليّ أن أتجرعها. أضع السيكارة بين أسناني، أضغط عليها، أفتح الملف الأول.

لا، لن أفتح القبر، أمي ماتت، أنا متأكد أنها ماتت، هذا هو اليوم الخامس، من قال إنها لم تمت، لقد دفنتها أنا بيدي هاتين، أنا أعرف، هم على حق، أنت لم تموتي، يجب أن أعترف، أنا قتلتك، بيدي هاتين حملتك إلى المستشفى، إلى أفخم

مستشفى في المدينة، غرفتك خاصة، فيها ثلاجة وتلفاز وممرضة مقيمة، وطاقات الزهر تملأ الأركان كلها، وبجوارها غرفة لاستقبال العوّاد، "ولدي هل أجرة هذه الغرفة من راتبك؟ "، وأرد : " لا تقلقي ياأمي"، وتحاول النهوض من السرير " لا، لا يا ولدي، دعني، أريد أن أموت في البيت، على فراشي، لا أريد أن تدفع هنا ثمن الدواء من ..." ثم تهمس:

" أنت تقتلني يا ولدي"، وهأ نذا أفتح القبر، في منتصف الليل، أنا وحدي، في ظلمة القبر، ثمة جسد يضيء، كالقمر، وأبو سائر يقود الحفارة، يغرز في التربة مسمار حفارته (الكومبريسة)، " أنا ما دعوتك، وما طلبت منك"، ويرد عليّ: " أنا أعرف، نحن في أواخر القرن العشرين، زمان جدي وجدك تغير، جئتك بحفارة، يجب أن تقبل، اقبل كل شيء، دع الأمور تجري"، ويغرز مسمار حفارته في القبر، وأبو سائر يقهقه، وأنا أرى أمي ملفوفة بورقة نقدية كبيرة، كبيرة جداً، جديدة، عينا أمي تدمعان وأبو سائر يقهقه .

أغلق الملف الأول، أفتح الآخر.

تطالعني أيضاً ورقة نقدية من فئة خمسمئة الليرة، معلقة بالأوراق الثبوتية.

أنسى السيكارة، أشعلها، أنفث الدخان، أنظر في الأوراق. ينتابني سعال حاد، أغص بالدخان، أغمس السيكارة في المنفضة، أطفئها، أحطمها بأصابعي.

أحسّ كأني أدخن أول مرة، أحسّ كأني جديد على الوظيفة، كأني لم أعمل في هذا المكتب منذ عشرين عاماً، كأني أطالع الملفات وأقرأ الأوراق أول مرة، أكاد لا أفهم شيئاً مما أقرأ، لا أعرف.

أنظر في الملف الثالث.

تلدغني ورقة من فئة مئة ليرة، معلقة داخل الملف، أحسّ برعدة، أغلق الملف.

بيديَّ هاتين وسّدْتُها التراب، ثم وضعت البلاطات فوق القبر، وأهلت عليها التراب، لم أجزع، ولكن الحلم كان أقسى، حتى الآن أحسّ بجسمي يرتعد، بسمة هادئة كانت تودّعني بها، وأنا أُودِعُها القبر، ولكن في الحلم كانت تكلمني، تصيح بي، وأبو سائر يغرز مسمار الحفّارة في القبر، لا أعرف لماذا يريد نبشه.

ويفتح الآذن الباب، ويدخل، حاملاً صينية فيها فنجان قهوة، وكأس ماء.

– تفضل، هذا فنجانك، هو من طرف أبو سائر، هو أوصاني عليه.

يضع الفنجان والكأس على المكتب، ويمضي، وقبل أن يبلغ الباب يلتفت إلـيّ، ويسأل:

- **هل أرفع الستائر؟**
- **لا، اتركها مسدلة، النور يزعجني**

الآذن يرميني بنظرة قلقة، فأعلق:

- **ألا تعرف؟ الصغار يخافون العتمة، والكبار يخافون النور.**

الآذن يغمغم، وهو يوليني ظهره، ثم يخرج.

أضع الملفات الثلاثة إلى جانب المكتب، أعود إلى الملف الذي كان بين يدي، أدقق فيه.

وأمد يدي إلى الفنجان، وإذا بالباب يفتح، وأبو سائر يدخل، ترتدّ يدي عن الفنجان، أبو سائر يثبت عينيه على الملفات الثلاثة المركونة على جانب المكتب، يدنو منها، يهمّ بأخذها، فأقول له:

- **لم أقرأها بعد، ولم أدققها**
- **اطمئن، الأوراق المطلوبة كلها داخل الملف، أنا دققتها، لايمكن أن أحضر لك أي ملف فيه خطأ أو نقص.**
- **ولكن فيها بعض الأوراق الزائدة**
- **هذا خير من النقص**
- **أنا لا أريد الزيادة ولا النقص**
- **هكذا الدنيا، لابدّ، فيها زيادة أو نقص، هل تغيرت الآن ؟**
- **نعم**
- **وما الذي غيرها؟**
- **أنت**

أبو سائر يضحك، أول مرة أرى فمه الواسع مثل ديناصور، وأسنانه السوداء مثل فئران، عيناه تقفزان نحوي كالجراد، وأنفه المفلطح مثل خنزير يغمغم.

- **خذ، دخن سيكارة، وبعدها تفرج الأمور**

ويمد أصابعه القصيرة الممتلئة المصفرة إلى علبة التبغ، يستل سيكارة، يقدّمها إلـيّ.

- **تركت التدخين**

يذهل، يفتح عينيه، أرى عمقهما المحمرّ.

- متى ؟

- الآن

يعيد علبة التبغ إلى موضعها على المكتب، أقول له:

- خذها، ضعها في جيبك .

يضع علبة التبغ في جيبه، ثم يتكلم، وهو يلوي عنقه :

- لابأس، وأنا سأترك التدخين مثلك، فقط، أريد توقيعك على هذه الملفات

- اتركها حتى أقرأها

- صدقني أصحابها مساكين، واحد منهم ابن عم زوجتي، والثاني صديق قديم، والثالث جاري

- إذن، لابد من تدقيقها بعناية

- أنا دققتها عشرين مرة، صدقني، وقع عليها، وهاتها، برحمة الوالدة

وأهب واقفاً، أصيح به :

- وغد، سافل، حقير، يقطع وجهك ولسانك، لاتذكر الوالدة.

- لا، لا، يا أستاذ، نحن أصحاب، وعملنا واحد، في مكتب واحد، ورزقك ورزقي واحد، ليس الآن، من عشر سنوات وأكثر، ماالذي غيّرك ؟

وأقذف في وجهه الملفات، وأنا أصيح به:

- خذ ملفاتك وملفات المساكين مثلك، واخرج بها.

- ٢ -

أمام المصعد أقف، أنتظر، جسمي كله يرتعش، عيناي زائغتان، ما عدت أطيق القعود في مكتبي، صار عمري خمسين سنة، ولم أغضب طوال عمري مثل هذه الغضبة.

السافل يسألني برحمة الوالدة، وهي ما مرّ على وفاتها أسبوع، وأوّل يوم من دوامي بعد وفاتها يسألني برحمة الوالدة، وهل يعرف هو الرحمة؟ هو الذي أشقاني وأفسد كل حياتي. المسكينة، الله يرحمها، كانت كل صباح وكل مساء تسألني: " من أين تأتي بثمن هذا الطعام؟ لِمَ هذا الإسراف يا ولدي، لا تعلّم أولادك على الترف، النعمة لا تدوم، عوّدهم على العيش الخشن"، آخر مرة قالت لي: "هذا

الدواء ما عاد ينفعني"، وصمتت، ثم قالت: " بالله عليك، قل لي، هل ثمنه من راتبك؟ وبالحلال؟"

وينفجر الضوء في وجهي، أصعق، أنقذف إلى الوراء، قبر أمي وقد انفتح عن قمر بهيّ، وأنا أرى الجسد الملتف بالكفن، كالحليب.

المنتظرون مثلي يدخلون إلى المصعد، وأنا أتراجع، أحدهم يقول لي:

– تفضل، المصعد يتسع

ولكنني أتراجع.

في آخر لحظة، قبل انغلاق الباب، ألحظ المرآة في عمق المصعد، أرى وجهي مرتسماً فيها، وجه جامد، ليس كوجه أمي، وأنا أضع البلاطة الأخيرة فوق القبر، فأرى بسمتها الشاحبة، آخر مرة.

أترك موضعي أمام المصعد، لا أعرف لماذا صعقني النور الباهر فيه، وهو يفتح، أمضي إلى الدرج، آخذ بالهبوط عليه، أبتعد شيئاً فشيئاً عن ضجيج المديرية وصخب المراجعين، أدخل شيئاً فشيئاً في العتمة، أحس أحياناً بحركة المصعد، ولكنها هي نفسها بدأت تغيب.

أرتاح إلى الدرج، وأنا أنزل عليه، أغوص في العتمة، الدرجات الهابطة تمتص كل ثقل جسدي، قدماي تطمئنان، أحس كأني أتدثر بالدفء، تحتويني العتمة، كالماء ينحل في الماء، يتحد فيه، هكذا أحس أني أنحل في العتمة، أتحد بها، أدخل فيها مغمض العينين، والدرج يلتف ويدور غائصاً إلى الأسفل إلى الأعمق، وأنا ألتف معه وأغوص، مثل مسمار يدخل في ثقب عميق، أختبئ، أغيب، أتلاشى، في عمق العتمة الدامسة أحس بالسعادة، أشعر بالرضا.

وأمام باب حديدي تُرِكَ موارباً أقف، أرى نوراً باهتاً يتسرب. أنقر بإصبعي على الباب الحديدي، بهدوء، ثم أدفعه، وأدخل.

أبو كامل وراء مكتبه، يرفع رأسه عن كتاب يقرأ فيه، يراني، ينهض، يتقدم مني مرحباً، أمد إليه يدي مصافحاً، فيشد عليها، مكرراً ترحيبه.

– الآن كنت أذكرك، أنت رجل طيب.

هكذا يبادرني.

وأقعد على كرسي أمام مكتبه، ويقعد على كرسي آخر قبالتي، تاركاً الكرسي الذي وراء المكتب شاغراً.

المكتب يغص بكتب كثيرة، بعضها مفتوح، وبعضها مغلق، كلها تدل على أنه كان يغوص في القراءة.

في العمق رفوف معدنية متوازية تمتد على طول القبو، تحمل ملفات وملفات وملفات، كل امرئ فوق، له هنا ملف تحت، كل صاعد أو هابط، كل مستاء أو مسرور، هم فوق يصخبون ويضجون ويتحركون، والملفات هنا تحت راقدة في هدوء، قد تتحرك أحياناً، ولكن في هدوء، هدوء.

أبادره الكلام، وأنا أرسل زفرة:

– كم أتمنى لو كنت هنا في موضعك

– موضعك فوق، أنت رجل متعلم، معك شهادة حقوق.

– ليتني لم أتعلم

– العلم مطلب إنساني، أنا لم أتابع تعليمي، ولكن كما تراني، لاأترك القراءة.

– تعبت

– هي أمانة، عليك أن تحملها

– مللت من الضجيج والصخب والقلق، بدأت أميل إلى الهدوء.

– في قلب الضجيج تجد الهدوء، وفي قلب الهدوء تجد الضجيج.

– لم أجده فوق.

– الهدوء والضجيج معاً، في كل مكان، فوق أو تحت.

– ولكن كيف سأجده؟

– ابحث عنه في ذاتك.

ويخيّم صمت مقدّس، أقطعه بالقول:

– أودّ أن أقص عليك حلماً رأيته

فيردّ:

– ولكن طوال عمري، وقد تجاوزت الستين، لم أحاول تفسير أي حلم.

– لا أطلب منك التفسير، فقط أود أن أقصّ عليك حلمي.

– إذن، فليكن بعد القهوة.

ثم ينهض، يفتح خزانة صغيرة، يخرج موقداً صغيراً، وثلاثة فناجين، وغلاّية، ثم يبدأ بإعداد القهوة، وهو يتكلم:

– أنت تعرف، هذه قهوة خاصة، أعدّها بنفسي، أشتري الحب، أحمّصه على النار، أطحنه، لا أمزجه بشيء، ثم أعدّ القهوة بنفسي، لاأقبل أن يقدمها لي أحد، أشربها هكذا نقية خالصة، صافية.

– لا أجد مثل قهوتك، أحس وأنا أشربها، كأن ذاتي قد عادت إليّ، لذلك، كلما أحسست أنها ضاعت أجيء إليك.

– أهلاً بك في كل آن، ولكن، فلتتذكر، أن ذاتك لا تغادرك، ولا تضيع.

– ولكن ما سرّ هذا الإحساس؟

– علاقتك بالناس.

– ولذلك أتمنى أن أعتزلهم، لو أغلق على ذاتي كل النوافذ والأبواب، لو أعيش عندك هناك في العمق، في الداخل، بين الملفات.

– لم تفهمني.

– كيف ؟

ويصب القهوة في الفناجين الثلاثة، ثم يقدِّم إلي بيد ثابتة الفنجان، وهو يقول:

– بعد أن تشرب قهوتي ستعرف.

أتناول منه فنجان القهوة بيد راعشة، وأنا أسأله:

– ولم صببت في الفنجان الثالث ؟

وأحس بالباب ورائي يفتح، وبرجل يدخل، وهو يحيي، فيرحب به أبو كامل، ثم يقول لي:

– هل رأيت؟ لابد من ضيف.

ثم يقدّم إليه فنجان القهوة بيده، الرجل الداخل يحار، يتردد، ثم يتكلم:

– شكراً، ولكن أنا جئت فقط لآخذ ملفّي، المدير طلبه، وهذا كتاب منه.

ويتقدم الرجل، يمدّ يده بورقة ممهورة بخاتم المدير.

أبو كامل يقول له بصوت ثابت:

– تفضل، اشرب، انعش روحك

الرجل يقعد على الكرسي قبالتي.

أبو كامل ينظر في الورقة، يقرأ الاسم، يضعها على المكتب، ثم يمضي، واثق الخطو، مشدود القامة، رافع الرأس.

ويميل عليّ الرجل، ويهمس لي:

- **كم يجب أن أدفع له؟**

أنظر إليه وأبتسم.

ويرجع أبو كامل، حاملاً الملف، والبِشْر يأتلق في وجهه. يقدم إليه الملف، قائلاً :

- **تفضل**

الرجل يمدّ إليه يده بقطعة ورق نقدية، وهو يقول:

- **وتفضل، أيضاً.**

أبو كامل يبتسم، يردّ بهدوء :

- **لا يا أخي، احتفظ بها.**
- **اعتبرها مجرد رمز**
- **لاضرورة للرمز، في حالة الوضوح.**
- **هي تعويض عن تعبك**
- **قمت بواجبي**
- **رزْقٌ من الله**
- **رَزَقَني الله الراتب**
- **ولكنه لا يكفي**
- **إذا لم تملك القناعة، فمال الدنيا كله لا يكفي.**
- **اعتبرها ثمن فنجان القهوة**

أبو كامل يمشي نحو كرسيه، يقعد وراء مكتبه، ينظر إلى الرجل بهدوء، وعيناه تأتلقان:

- **قهوتي ضيافة، قدمتها إليك لكي تنتعش.**
- **ليت كل الناس مثلك**
- **أنا واحد منهم.**

هكذا كان أبو كامل يرد على الرجل، وأنا أتأمله مثل طفل يضع ورقة شفافة فوق رسم يحاول أن ينقله.

الرجل يشكره، ثم يخرج حاملاً الملف.

أتكلم سائلاً:

- **هل وصل إليك أبو سائر؟**
- **وهل تظن أن أحداً منا في مأمن؟ كلنا معرضون، نعم، وصل إلي هو، وكثير من أمثاله.**
- **وهل سقيتهم من قهوتك؟**
- **نعم، سقيتهم، ولكنهم خرجوا كما دخلوا، لم يتذوقوا طعم القهوة.**

ويصمت. ثم يتكلم:

- **والآن، حدثني عن الحلم**
- **في الحقيقة، ما جئتك إلا من أجله، ولكن أجدني الآن، وقد نسيته.**
- **أنت شوقتني لسماعه، هات، حاول أن تذكره.**

وأحكي له قصة الحلم. يطرق، ثم يسأل:

- **هل أوصتك أمك بشيء ؟**
- **لا أعرف**
- **تذكّر!.**

أصمت، أفكر، يطول الصمت، فإذا هو يتكلم :

- **ليس من الضروري أن تذكره الآن**

أشكره للقهوة، استأذنه، ثم أمضي، وأمام الباب أقف، ألتفت، وإذا هو ورائي، يودّعني.

أمد إليه يدي، فيشدّ عليها، أحدّق فيه، فأرى وجه أبي. أقول له فجأة :

- **الآن تذكرت الوصية**
- **إذن، احفظ وصية أمك، وبها اعمل**
- **سوف أفعل**

ويهمس لي:

- **وإذن، فسوف تسد/صعد**

– ٣ –

أمام باب المئذنة، وقف الشيخ العجوز، يقول لي، والكلام يخرج من بين أسنانه كالصفير:

– يا ولدي، درجات المئذنة تسع وتسعون، سوف تصعدها درجة درجة، لا تخف، هناك غبار وعناكب، هناك درجات مكسورة، سوف تدخل في العتمة، ولكن لا تخف، عند القمة، سترى النور.

وألتفت إلى أمي، فإذا هي تقول لي:

– هيا، ادخل، ولا تخف، أنا هناك، أمام الضريح، سأوقد لك شمعة.

وأدخل.

هل سأرى أبي؟ لا يعقل، أبي دفنوه هناك، خارج المدينة، في المقبرة، وأهالوا عليه التراب، ولكن لا أعرف لماذا كل ليلة، أسمع وسوسة مفاتيحه، كأنه سيفتح الباب ويدخل، وعندما أدخل غرفته، أحس هسيساً، أقول : " أبي كان هنا يرقد، أكاد أسمع سعاله، أحس أني أراه، مرة أحسست كأن طائراً يخفق في فضاء الغرفة ".

أمي تقول: "لا تخف، هي روح أبيك، أنا سآخذك إلى الشيخ، وسترقى درجات المئذنة، ستدخل في العتمة، وتلف مع الدرج وتدور، حتى تبلغ القمة، وعندئذ يزول عنك خوف العتمة".

العتمة ما عادت تخيفني، بل صرت أعشقها، أعرف موضع قدمي من الدرج، وأحس بالمصعد إلى جواري يتحرك، ولكن ركبتي تؤلمني، وصدري يضيق، وأنا ألهث، نَفَسي يكاد يحبس، ويدي ترتعش.

الدرجات الأولى عالية، مخيفة، عتمة مطبقة، وجدار لاصق بي، وليس ثمة ما أمسك به، وأنا لا أعرف شكلاً لهذه الدرجة، هي عريضة من جانب وضيقة ضيقة جداً من جانب، يمكنني أن أعدو أن أركض، ولكن العتمة تعميني، لا أدري أين أحط يدي، هل هذا غبار، أو عنكبوت، أخشى أن تبرز لي أفعى، ولا شيء أبداً، لا صوت ولا ضجة ولا حركة، وأنا وحدي، وهذه ثغور أو شقوق في جدار مهترئ، وأظافري تتشبث بالتراب، تتحسس الدرج، وركبتي تصطدم بالدرجة، لا شيء سوى قدمي، ويدي، والجدار، وهذا الدرج الملتف، ولكن ما عددت الدرجات التي صعدت، كم بقي لي، أو كم صعدت؟ لا أعرف.

صخب الناس وضجيجهم لا يغادرني، أظن أني بلغت الدور الثالث، في كل دور هناك موظفون وعمال ومراجعون، وهم يلغطون ويتكلمون، طوابع تباع، وأوراق تمهر، وأختام توضع، كأني لم أغادرهم، لا أعرف كيف سأخترق زحامهم، الدرج ليس مشكلة أبداً، بل هو في عتمته، أحبّ إلى نفسي.

خطواتي أصبحت أسرع، أَلِفْتُ الدرجات، وعَرَفْتُها، وهأنذا أرقى، أتجاوز العتمة، أحس أني قريب من القمة، أحس بالدرجة المكسورة، قدمي لا تتعثر، وأصعد، أصعد، أحس بجسمي خفيفاً، كأني أطير، كالفراشة أحلّق، كأني أبلغ الدرجة التاسعة والتسعين، وأدفع الباب، ويتألق النور.

أحس بجسمي يثقل ويثقل، ركبتاي ما عادتا تطيقان حملي، نَفَسي ينقطع، وأنا متشبث بمسند الدرج، أستند إليه، أتكئ عليه، لست وحدي، كل الناس من حولي، أسمع الصخب والضجيج، ها قد وصلت إلى الدور الخامس، من غير شك، أربعة أدوار أخرى، لا، لا أطيق.

أعبر الباب، أدخل الشرفة، يغمرني النور، أرى الإشراقة والبهاء، أَلُفُّ في الشرفة الملتفة، أرى الجهات، أرى كل الجهات، أمشي الهوينى، وأنا أتلمس مسند الشرفة في المئذنة، أرى السماوات البعيدة الفسيحة، أستشرف الآفاق، أكاد أرى ما وراءها، ثم أطل على المدينة، كم أنت واسعة وجميلة، يا مدينتي، ياه، ما هذه البيوت والأسواق، هناك بيتنا، وهنا مدرستي، ما أعظم الحياة وما أوسعها، وأطل على فناء المسجد، فأرى أمي.

وأنعطف من الدرج إلى بهو المديرية، فأدخل في زحام الناس وصخبهم وضجيجهم، أقف أمام باب المصعد، أنتظر مع المنتظرين، وما هي إلاّ هنيهة، حتى يصل، يفتح الباب، فإذا أنا أندفع إلى داخله مع الأجساد المندفعة.

الضوء في المصعد باهر، عشرة محشورون في ضيقه حشراً، لغطهم يصمّني، لغطهم يوقظني.

– كم دفعت له ؟

– ثلاثة آلاف

– أنا أخذ مني أربعة

– لماذا لم يدخل أحد منكم على الموظف مباشرة ؟

– مسيّرو المعاملات أمام باب المديرية يتلَقَّوْن كل صاحب معاملة

– مثل الذئاب

– هم على اتفاق مع كل الموظفين في داخل المديرية

– والحل ؟

– لا حل، مادام راتب الموظف لا

يكفيه

- **الحق مع الموظف، إذا لم يأخذ رشوة فكيف سيعيش؟**
- **لو تضاعفت الرواتب لحلت المشكلة**
- **ماهي المشكلة في الرواتب، المشكلة في الأخلاق**
- **بعض الموظفين لو زادت رواتبهم عشرة أضعاف لن يتخلَّوْا عن الرشوة**
- **والمديـر؟**
- **المدير ومعاونه ورؤساء الأقسام كلهم سواء**
- **لا، هناك من هم شرفاء.**

أصل إلى غرفتي، فيسرع الآذن إلى فتح الباب.

وأنا أهم بالدخول، يسرع إلي رجل، يستوقفني، قائلاً:

- **عفواً أستاذ**
- **تفضل**
- **أنا بانتظارك، أرجو وضع توقيعك على معاملتي.**

الآذن يحاول إبعاده، أشير إلى الآذن ثم أقول للرجل:

- **اتبعني.**

أدخل غرفتي، أتخذ مكاني وراء مكتبي، أتناول الملف من الرجل، أضعه على المكتب، ثم أقول:

- **راجعني غداً.**

يطرق، يقف، يهم بالمضي، يتردد، ثم يرجع، يهمس :

- **والله أنا قادم من الريف، الوسطاء أخذوا مني كل شيء، ما بقي معي غير أجرة الطريق.**

يدخل أبو سائر، يراه، فيصيح به:

- **لماذا أنت هنا؟ ماذا تفعل؟ قلت لك، هات الملف، وأنا سأدخل على الأستاذ، لكي يوقع لك على معاملتك، تفضل، اخرج، الأستاذ ليس عنده وقت، ألا ترى الملفات على مكتبه، هات أين ملفك؟**

أفتح ملف الرجل، وأبو سائر ما يزال يتكلم، أنظر في الأوراق، أضع توقيعي، ثم أقول للرجل:

- **تفضل يا أخي**

يقترب مني الرجل، يتناول الملف، يقول لي:

- **الله يرحم والديك.**

أبو سائر يتكلم :

- **أستاذ، أنت قطعت رزقي ورزق عيالي، وقطعت رزقك**

أقول له:

- **ابحث عن عمل آخر**

ثم أنادي الآذن، أشير إلى الستائر المسدلة على النوافذ، أطلب إليه أن يفتحها، فيتردد، وهو يتكلم:

- **ولكن، أستاذ، أنت توصيني دائماً : " اترك الستائر مسدلة، النور يزعجني"، هكذا كنت تقول لي.**

أبو سائر يغادر، فأرى ظهره وهو يخرج من الباب. أقول للآذن :

- **نعم، هكذا كنت أقول لك من قبل، ولكن الآن: لا، افتح الباب، باب المكتب، افتحه على مصراعيه، وليدخل كل المراجعين، وافتح النوافذ، لا ستائر بعد اليوم، دع الكون يملَأْه النور.**

- ١ -

لا يعرف: أصراخ هو أم فحيح؟

الصوت يصخّ سمعه، ويلتفت، وإذا الدم المنبجس من الرأس والمنداح على الإسفلت الأسود يملأ عينيه، والسيارة واقفة محملقة العينين أمام الطفلة الشقراء، الغارقة في البقعة الحمراء.

وضع الصفارة في فمه، أرسل صفيراً حاداً، رفع جهازالاتصال، ونادى.

وماهي إلا هنيهة حتى زال كلّ شيء، لادم ولا طفلة، وأخذت السيارات تسيل أمامه، عيونها تحدّق فيه، عيون راعبة، عيون محملقة، عيون مغمضة، عيون ناعسة، ومقدّماتها أفواه تندفع نحوه، أفواه تكاد تطبق فكيها عليه، أفواه ضاحكة، أفواه مهدّدة، أفواه تمضع،أفواه وعيون تسيل وتسيل.

الضوء الأحمر ينطفئ، يضيء الأصفر، يضيء الأخضر، ثم ينطفئ، يضيء الأصفر، ثم الأحمر، يضيء، يضيء...

ومع الإضاءة والانطفاء تتجاوب في اتّساق كلي أبواق السيارات وهدير المحركات وسحج العجلات.

دم الطفلة الشقراء هنا جف، نشف، طار، تبخر.

أناس جدد على الرصيف يمرّون مسرعين، لا يعرفون شيئاً، كأن لم يكن قبل قليل ثمة حادث أو ازدحام أو سيارة إسعاف.

كأن لم يكن ثمة دم.

- ٢ -

إلى غرفة صغيرة مُسْتَأْجَرة في أسفل البناء، يأوي مساء، كالجرذ، يجهز طعامه، يضعه على منضدة صغيرة جداً، ثم يقعد أمام التلفزيون، ينتظر نبأ الطفلة الشقراء.

يزدرد بضع لقيمات، وتبدأ الأخبار المصورة.

يتوقف عن المضغ.

متى سيتكلم المذيع عليها، ولو بضع كليمات؟

سيارات لماعة، من أفخر الأنواع، لا يخترقها الرصاص، ترفرف في مقدماتها أعلام صغيرة، ورجال يدعون إليها لفتح الأبواب، وتنزل منها أحذية لماعة، لتدوس على بساط أحمر.

بعد قليل سيتكلم المذيع من غير شك على بقعة الدم الحمراء والشعر الأشقر.

قطار سريع يصطدم... طائرة مروحية تسقط... باخرة تجنح... قرد يهرب من حديقة...

ثم ماذا؟.. أين الطفلة؟

أسعار العملات، حالة الجو، ثم يبتسم المذيع، ويتكلم: "**مساؤكم سعيد، أتمنى لكم سهرة ممتعة...**".

يتفل اللقمة، يقفل التلفزيون، ينهض.

يدق جبهته بقبضة يده:

حقاً، لقد أصبح العالم كله قرية صغيرة، نعرف عنها كل شيء.

- ٣ -

في الساعة نفسها، من اليوم التالي، وهو واقف في المكان نفسه، ودخان العوادم يملأ رئتيه، يصخّ سمعه الصوت، ويملأ الأحمر عينيه، وبعفوية يضع صفارته في فمه، ينفخ بحدّة، يشير بيديه، ثم يرفع جهاز الاتصال، وينادي.

ويمدّ السائقون رؤوسهم وأيديهم من النوافذ مستنكرين وقد أرسلوا أبواق سياراتهم:

" **لماذا أوقفتنا؟** "

" **اتركنا نمرّ** "

"**الإشارة خضراء**"

"**ألا ترى الإشارة ؟ هل أنت أعمى**"

" **هل أنت مجنون؟ أم أعمى؟** "

ويصل الضابط:

" **ماذا حصل؟** "

" **الطفلة** "

" **أي طفلة؟** "

"هناك على الإسفلت "

ويشير الشرطي بيده، فينظر الضابط، ثم يعّلق في ردّ مزعج، وهو مستاء.

الشرطي يصمت، يتردد، ثم يتكلم:

" ولنفترض، كما قلت، حضرة الضابط، أن هذا قد حدث أمس"

يقاطعه الضابط:

"لا، هذا ليس افتراضاً، هذا هو الحقيقة، الحادث وقع أمس، وانتهى".

ويتكلم الشرطي:

"نعم، هو الحقيقة، كما قلت، أنت، حضرة الضابط، حدث أمس، ولكن مامصير الطفلة؟ لماذا لم يذيعوا في التلفزيون؟ "

"هذا ليس من اختصاصنا"

يصمت الشرطي، يدرك أنه قد أفحم، ولكنه ما يلبث أن يتكلم:

"نعم، نعم، كما قلت حضرة الضابط، هو ليس من اختصاصنا، ولكن كيف تركنا السيارة تمرّ؟ "

"ألم تأخذ رقمها؟ "

"نعم"

"هذا يكفي"

ويشير الضابط إلى السيارات.

أفواه السيارات تضحك، عيونها تلتمع، أبواقها تقهقه، كأن الإشارة تدغدغها.

السيل يتدفق.

ولكن ثمة بقعة دم يراها الشرطي.

- ٤ -

في الوقت نفسه من اليوم التالي يصخُّ سمعَه الصوتُ، وتلتمع في عينيه بقعة الدم، يرفع جهاز الاتصال. ويصل الضابط، ليصيح به:

" ألم أقل لك، هذا حصل يوم أمس الأول"

ويرفع الشرطي يده أمام وجه الضابط، سائلاً:

" وهذه الخصلة من شعرها الأشقر؟ "

يردّ الضابط بهدوء:

" **لعلك اشتريتها من محل لبائع الشعر المستعار، أو لعلك جززتها من شعر فتاة في مقبرة، أو لعلها...**".

ويصمت هنيهة، ثم يضيف:

" **أنت متعب أيها الشرطي، سأمنحك يومين إجازة** ".

نهر السيارات يتدفق بصخب.

بقعة الدم تملأ عيني الشرطي، حتى تسدّ الأفق.

– ٥ –

يستيقظ في صباح اليوم التالي باكراً، يمضي على الفور إلى مركز البريد، يشتري دليل المدينة، يقف أمام الهاتف، ويبدأ الاتصال:

"**هل عندكم طفلة شقراء الشعر، في السادسة من عمرها، لم تعد إلى البيت؟**"

"**هناك طفلة في ثلاجة الموتى، تنتظر من يتعرف إليها**".

"**طفلة في التاسعة ترقد في المستشفى تحتاج إلى دم، هل من متبرع؟** ".

" **في الشارع رقم ١٢ عند إشارة المرور، طفلة راقدة في دمها، نرجو إرسال سيارة إسعاف**".

صف طويل وراءه من المنتظرين، وهو ما يزال يتصل، ويقلب صفحات الدليل.

الضابط يربت على كتفه، يلتفت إليه.

" **ماذا تفعل هنا؟** "

" **لا شيء**"

" **المفروض أنك في إجازة**"

"**هذا صحيح، وأنا أمضيها أين أشاء**"

"**ولكن ليس كما تشاء، أنت أحدثت بلبلة في المدينة**"

"**أنا؟** "

"**نعم، تعال انظر، سيارات الإسعاف تجوب الشوارع، الناس يتجمهرون أمام بنك الدم للتبرع، أمهات كثيرات تركن بيوتهن وأعمالهن وذهبن إلى المدارس للاطمئنان على بناتهن**".

"**ولكن أنا**"

الضابط يقاطعه:

"**أنت تشكل خطراً على المدينة**"

الضابط ينقل الشرطي في سيارته إلى مبنى كبير، محاط بسور شاهق، حيث يرمى في حجرة صغيرة جداً، ليس فيها سوى كوة عالية، وقد ألبس ثياباً خاصة بالمقيمين هناك.

الشرطي يرفع رأسه إلى الكوة، فيرى من وراء القضبان بقعة حمراء، ثم تتحرك القضبان، فإذا هي ضفائر شقراء تنوس.

– ٦ –

الضابط يجتمع بقادته الكبار، يقرأ عليهم تقريره:

"**البلبلة تعم المدينة، آلاف الاتصالات الهاتفية تتدفق على الصحف والإذاعة والتلفزيون، تسأل عن بنت شقراء مفقودة، وكأن هذه البنت قد أصبحت بنت كل الناس**".

أحدهم يمسح العرق الراشح على صلعته، وآخر يتلمّس اللغد الهابط تحت ذقنه، وثالث يعقد أصابعه على بطنه الممتدة إلى الأمام.

الضابط يتابع قراءة التقرير.

" **لقد زرته أمس في زنزانته، فرأيته قاعداً وهو يتأمل الجدار المواجه للكوة، وعلامات الرضا بادية على وجهه، فسألته فأجاب بأنه يرى سهولاً وجداول وحقولاً خضراء وأشجاراً باسقة وشمساً ساطعة وعصافير ترف وفراشات تحلق وفتاة شقراء تنهض من وراء الأفق، ثم نظرت أنا إلى الكوة فلم أر من وراء قضبانها سوى سخام أسود كثيف معلق في سماء المدينة مثل سحابة توشك أن تقطر مطراً أسود**".

الكبار يميل بعضهم على بعضهم الآخر، يتهامسون، يغمغمون يلغطون يهدرون مثل قطيع غنم له ثغاء.

يتكلم صاحب اللغد، ثم يتكلم صاحب البطن الكبيرة، ثم يتكلم صاحب الصلعة المتألقة.

"**هذا الشرطي خطر عليك وعلينا وعلى المدينة كلها**"

"**أولاً يجب ألا تزوره بعد اليوم، وألا تتصل به، وألا تسأله شيئاً**"

ويعودون إلى الغمغمة والتهامس، ثم يتكلمون.

"**ليس فينا من يشبهه**"

"**لعله ليس شرطياً**"

"**من أين جاء؟** "

ويردّ الضابط موضحاً بانضباط شديد:

"**هو ابن ريف، كان يعمل في منطقة نائية، يتصف بما يسمونه هناك الجد والصدق والإخلاص والنزاهة، نقل إلى المدينة منذ أسبوع واحد فقط** ".

يعودون إلى الغمغمة والتشاور حتى يعلو ثغاؤهم، ثم يتكلم أحدهم:

"**الآن أنت واحد منّا، ولذلك عليك أن تشاركنا التحاور**".

يحس باللغد تحت ذقنه قد بدأت تكبر، يحسّ ببطنه قد بدأت تتكور وتمتد إلى الأمام، يحسّ برأسه وقد أصبح أصلع.

" **أقترح ردّه إلى الريف** "

" **أنت بذلك تكافئه**"

" **نبقيه هناك** "

"**ليسَ حلاً، إما أن يجنّ فيها حقيقة، وإما أن يظل مستمتعاً بما يراه على الجدار، إن كنا نشك في أنه يراه**"

"**والحل؟** "

"**تعيده الى مكانه من العمل في وسط المدينة، ليحرم من نقاء الريف، وليتنفس السخام، ويملأ به عينيه، حتى لا يرى سواه**"

ويوافق الجميع.

– ٧–

قبل أن يفض الاجتماع، يسأل الضابط، وقد تدلت لغده كثيراً وامتدت بطنه أكثر من أي بطن أخرى، وأصبح أصلع تماماً.

"**أرجو ألا ننسى البلبلة التي أحدثها في المدينة، الناس مازالوا يسألون عن طفلة شقراء**".

وتطرح حلول كثيرة.

"**انسوا الموضوع، لا تفكروا فيه، الناس سوف يَمَلُّون منه، ثم ينسونه بالتقادم**"

"**تفتعل مشكلة جديدة تنسيهم تلك المشكلة**"

"**لا ضرورة للافتعال، المشكلات نفسها تولد كل يوم**"

" **بل نستثمر تلك المشكلة، بدلاً من أن تمرّ هكذا**"

"**وكيف؟** "

"**تعلن في وسائل الإعلام كلها عن وفاة طفلة إثر حادث، ونقيم لها قبراً من زجاج، في مكان الحادث نفسه، ويغطيه كبار المسؤلين بباقات الزهور**"

ويفوز هذا الحل.

فيضيف أحدهم:

"**ونجعل من هذا اليوم يوم عيد الطفلة الشقراء، تعطل فيه كل المؤسسات والدوائر الرسمية**"

ويضيف الآخر:

" **ونعين ذلك الشرطي حارساً دائماً للقبر**"

وتعلو القهقهات.

– ٨ –

الشرطي واقف بجوار القبر، يتقدم منه رجل على حذائه آثار طين، يصافحه بيد خشنة، شققها المحراث، ثم يقول له:

" **يؤسفني أن أخبرك بوفاة ابنتك، داستها سيارة في طريق القرية، وهي ذاهبة الى المدرسة**"

الشرطي يرد:

"**أعرف ذلك**"

"**وكيف عرفت؟** "

الشرطي لا يردّ، يتابع مراقبة حركة المرور.

الرجل يقول له:

"**إذن، هيا معي**"

"**إلى أين؟**"

"**الى القرية**"

"**لماذا**"

"**لدفن ابنتك**"

الشرطي ينظر إليه طويلاً، ثم يقول له:

"**اذهب، عد الى قريتك، انا ليس عندي سوى بنت واحدة، شقراء الشعر، وقد ماتت هنا، داستها هناك سيارة، منذ زمان، منذ زمان بعيد**"

"**ولكن ...**"

"**اتركني أتابع مهمتي، ياإلهي، ألاترى تلك الطفلة الصغيرة هناك، لا، لا، ستدوسها سيارة** "

ويصيح:

" **انتظري** "

ثم يشير الى السيارات، يأمرها جميعاً بالوقوف، يعدو الى طرف الرصيف، يسرع الى طفلة يراها تهم بعبور الشارع، يمسك بيدها، يعبر بها الى الرصيف الأخر، مجتازاً بها سيل السيارات المتدفقة، والسائقون يشيرون إليه من نوافذ سياراتهم هازئين ساخرين.

يرجع الى الرجل، يهمس له:

" **الذي يحيرّني حقيقة هو جنون هؤلاء السائقين، لاأعرف لماذا لاينصاعون إلى أمري**"

الرجل يغمغم:

" **ليتك لم تغادر القرية، قطعة الأرض هناك كانت تكفيك، لم يكن من الضروري أن تعمل شرطياً، ولكن للأسف، جنّنوك**".

ويسأله الشرطي ذاهلاً:

"**ماذا قلت؟**

"لا شيء"

ولكني سمعتك تتكلم"

" كنت أكلم نفسي"

"لماذا تكلم نفسك، هل أنت مجنون؟ "

"لا"

"إذن، ماذا كنت تقول؟ "

"كنت أقول خسارة مغادرتك القرية، ووقوفك هنا حارساً لهذا القبر"

"وهل تظن أن هذا القبر حقيقي؟ "

"لا أعرف، هكذا يبدو لي"

"هو مجرّد صندوق زجاجي فارغ، ولا أحد فيه، هل تريد أن أحطّمه؟ "

"لا، لا،... ولكن لماذا تقف هنا لحراسته؟ "

"لا، أنا لا أقف هنا لحراسته، أنا أقف لحراسة الأطفال الذين يريدون عبور الشارع، ألم تشاهد الطفلة التي ساعدتها منذ قليل؟ "

الرجل يردّ بعفوية:

"لا، لم أشاهد أي طفلة"

الشرطي يصيح بغضب:

"يا إلهي، إما أن تكون أعمى، أو مجنونا، على كل حال، أنا أنصح لك أن تعود الى قريتك".

يتكلم الرجل بهدوء:

"لا بأس، سأرجع الى القرية، ولكن أخبرني، هل ستذهب معي؟ "

"كيف أذهب وأترك الأطفال هنا ليموتوا؟ من سيحميهم غيري؟ "

"وابنتك؟ "

"قلت لك، ابنتي ماتت من زمان بعيد، هنا في هذا الشارع، داستها هناك سيارة، ألم تسمع؟ ألم تشاهد ذلك في التلفزيون؟ أم هل أنت مجنون؟ "

الرجل يوليه ظهره، ثم يمضي، وهو يغمغم:

" ما عدت أعرف، أأنا المجنون أم هو؟ "

الشرطي يناديه، فيرجع مستبشراً ليسأله:

"نعم ماذا تريد؟ "

"**كيف حال السماء هناك في القرية؟** "

"**أنا أحدثك عن ابنتك، وأنت تسألني عن القرية؟ والسماء فيها؟ شيء غريب حقاً**"

الشرطي يسأله بعصبية:

"**أنا أسألك عن السماء في القرية، فأجبني، كيف هي؟**"

" **السماء هي السماء، هنا أو هناك**"

الشرطي يصيح مستاء:

"**انظر إلى السماء هنا**"

يرفع الرجل وجهه الى السماء، يتملاها طويلاً، ثم يصيح:

"**يا إلهي، أين السماء، لاأرى سوى سخام أسود**"

"**والأن أجبني، كيف حال السماء هناك؟** "

"**الجو صحو، والشمس مشرقة**"

"**هل لاحظت شيئاً من سخام؟** "

الرجل يتكلم وكأنه يتذكر:

"**آه، نعم، هناك قليل من السخام، قليل جداً**".

"**إذن ، هيا عد إلى القرية سريعاً، قبل أن يزداد السخام فيها**".

- ٩ -

يهم الرجل بالعودة ولكن الضابط يفجؤه وقد تدلّت لغده وامتدت بطنه والتمعت صلعته:

" **قف، لا تتحرك، لقد سمعت كل ما دار بينكما من حديث، أمنعك من العودة الى القرية، أنت تشكل خطراً عليها، يجب أن تبقى هنا، سأعّينك مساعداً للحارس، يجب أن يملأ السخام عينيك، أو تجن** ".

ويحاول الرجل الكلام أو الحركة، ولكنه يتحول الى تمثال يعلوه السخام.

- ١٠ -

الشرطي يرى طفلة شقراء على طرف الرصيف تهم بعبور الشارع، فيهم بالمضي نحوها، ولكن الضابط يصيح به:

"**قف، لا تتحرك، سأوقف هذه المهزلة، ليس هناك طفلة، ولا حادث، وأنت قبل ذلك كله حارس لهذا القبر، وهذه مهمتك، لاتغادر موقع عملك، قف لاتتحرك**".

ويشير إليه بعصا المرور التي يحملها بيده، فيتحوّل الشرطي الى تمثال أسود يعلوه السخام.

- ١١ -

الطفلة على الرصيف ماتزال تتردد، تحاول العبور، ولكنها...

الضابط يعطي إشارة سماح بالمرور للسيارات، وكأنه يحثها على الاستمرار والإسراع.

حركة السيارات تستمر، صخبها يزداد، يعلو، يتفاقم، الطفلة تضع يدها على أذنيها، تتثنّى، تتمايل تترنح، تسقط.

الرجل الريفي جامد الحركة، الشرطي جامد الحركة.

الضابط وحده يتحرك.

- ١٢ -

الضابط يستمر في إعطاء إشارة السماح بالمرور للسيارات، الهدير والضجيج والسحج يعلو في تجاوب مع إشارة الضابط بيديه.

إيقاع السيارات المتحدّرة كالسيل يزداد حدة وشدة، حتى تضطرب إشارة الضابط وتضيع عبثاً، يتضح أنه فقد السيطرة، حركة يديه بدأت تدل على خوف يتفاقم.

الشرطي والرجل جامدان في مكانهما، والطفلة ملقاة على الأرض.

الضابط يشير كأنه يدفع عنه السيارات، يصيح:

"**لا، لا، أرجوكم، أنا الذي خدمتكم، سكت عن كل ما فعلتم، غطيت على ضحاياكم، جمدت هذا وذاك، تخليت عن كل الأطفال، لماذا؟ لأجلكم، لا، لا أتوقع، أن تتخلوا عني، أرجوكم لاتدوسوني، أتوسل إليكم، أنا أيضاً أب، ولي أطفال، لأجل أطفالي عملت كل ما عملت**"

يصمت، ينظر الى السماء.

عتمة مطبقة، وسحابات من سخام أسود، تتعقد وتتكاثف، يخيم ليل مريب، لاشيء سوى هدير السيارات

سيارات، سيارات، سيارات.

يتكلم بهدوء، نادماً:

" **ليتني لم أخدمكم، ليتني كشفت كل شيء، ليتني ساعدت أولئك البائسين، ماكنت أعرف**".

وتسقط كرات سوداء من السحاب الأسود المنعقد فوق المدينة.

وتهدر نحوه السيارات

"**لا، لا، لن تدوسوني، أنا الأقوى، قفوا، قفوا، لا لا**"

هكذا يصيح.

ولكن صيحته تضيع تحت سحج العجلات، كما يضيع هو، وتنهمر كرات أكبر فأكبر من السحاب الأسود.

- ١٣ -

ذات يوم ليس كسائر الأيام، تسطع شمس لم ير قبل مثلها بشر، تنهض شيئاً فشيئاً في كل الآفاق...

النور يمتد يمتد، فتحلق فراشات لتسبح في النور، وترف طيور، وتغرد جداول، وتميس غابات.

الرجل والشرطي يخرجان من الجمود، ينفضان عنهما السخام، ويمضيان في هدوء وانسياب الى الطفلة الراقدة، يرفعانها، تصحو، تضحك عيناها، تنوس ضفيرتاها، يرفعها الرجل والشرطي إلى أعلى.

الضابط نفسه ينهض، يخلع زيه العسكري، يستحم بالنور، يدخل بين الشرطي والرجل، يحمل الطفلة إلى أعلى، يشبك يده بيد الرجل والشرطي.

الثلاثة يقفون فوق القبر الزجاجي، يرفعون الطفلة الى الأعلى فالأعلى.

الطفلة تستقبل النور والنسيم بوجهها المشرق.

- ١٤ -

كان ما كان، كان في مدينة كبيرة رجل وامرأة، عاشا ردحاً من الزمان لم يرزقا فيه بولد، ثم رُزقا على الشيخوخة بطفلة شقراء، فرحا بها أشد الفرح، ومنحاها كل حياتهما، وكانا يحلمان بها وقد كبرت، دخلت المدرسة نجحت، تفوقت، دخلت الجامعة، تخرجت طبيبة، داوت جراحهما، رشت على مرّ أيامهما الشقية السمن والعسل...

وذات يوم وهي ذاهبة إلى المدرسة... ملأت القلب والوجدان بذكرى الطفلة الشقراء.

- ١ -

يقرع بهدوء باب المكتب المغلق، فيأتيه الجواب من الداخل:

"**تفضل**".

يفتح الباب ويدخل، فيغمره دفء لذيذ، ويرى الموظف العجوز قاعداً وراء المكتب، وهو يحتسي الشاي من كأس كبيرة، يُسَرُّ لمرآه، وعيناه تحومان حول كأس الشاي، وقد ثارت في داخله كلّ أحاسيس التعب.

خمس ساعات والسيارة تقطع به الطريق إلى العاصمة، خرج قبيل الفجر ليبلغ العاصمة مع بداية الدوام، أو بالأحرى مع بداية استقبال الوزارة للمراجعين، فهي لا تفتح أبوابها إلا عند الحادية عشرة.

يتفاءل الموظف البسيط الطيب، يحييه بابتسامة رضا، ثم يهمس:

"**صباح الخير حضرة الأستاذ**"

"**تفضّل**"

"**شكراً**"

ويمدّ إليه يده بالأوراق، وهو ينحني بتواضع جم، قائلاً:

"**هذه أوراق انتقالي من وزارتكم الكريمة، أرجو تزويدي بكتاب الموافقة على الانتقال**"

ويردّ، بعد أن يأخذ من الشاي رشفة:

"**لا بأس، ضعها في مصنف وأحضرها**"

ويخرج، يمضي سريعاً، وخارج مبنى الوزارة يبحث عن أقرب بائع، ثم يرجع لاهثاً، وهو يحمل المصنف، والفرحة تغمره، ها هو ذا يحقق حلمه الكبير، سيبدأ حياة جديدة.

ويقرع الباب نفسه، وقبل أن يأتيه الجواب يفتحه ويدخل، وإذا الموظف العجوز ليس وراء المكتب، يحسّ كأنه ارتكب إثماً، كأس الشاي ماثلة، يرمقها، فيها قليلٌ من الشاي، لا بأس، سيرجع الموظف العجوز من غير شك، يدير ظهره ويخرج، يغلق الباب بهدوء وكأنه يؤدي طقوس الاعتذار لاقتحامه المكتب في غياب صاحبه.

ينظر إلى ساعة يده، لا بأس، الساعة ما تزال الحادية عشرة والنصف، يمكنه حتى الثانية إنهاء معاملة الانتقال وتسليم الأوراق إلى الوزارة الجديدة، ويمكنه من غير شك العودة إلى محافظته في اليوم نفسه، لا، لن يبقى في العاصمة، لن ينام، ولن يتناول غداءه، سيرجع في اليوم نفسه، وفي صباح اليوم التالي سيباشر وظيفته الجديدة.

الممر الضيق خال، لا أحد فيه، الأبواب تمتد على طرفي الممر، هل يقرع باب أحد الموظفين ليسأل عن ذلك الموظف العجوز؟ أين ذهب؟ وهل سيتأخر؟

ويظهر الموظف العجوز قادماً من آخر الممر، يهمّ بالمضي نحوه، ولكنه يلبث في موضعه، يرى من الأنسب البقاء في مكانه، والانتظار حتى يدخل مكتبه.

الموظف يسير الهوينى، يُفْتَح باب مجاور، ويخرج منه موظف آخر، يلتقي الموظف العجوز، الموظفان يقفان، يتحدثان، يثرثران، يقهقهان، يطول الوقوف. يضيق بهما ذرعاً، يضجر، يهمّ بالمضي نحوهما، ولكنه يصبر، يحوّل أنظاره عنهما، يترك لهما الفرصة ليتحدثا أكثر فأكثر.

وأخيراً يتحرك الموظف العجوز، يسير بطيئاً بطيئاً، كأنما زاد وزنه، يمرّ به، يفتح الباب ويدخل، يدخل في إثره، الموظف العجوز يقعد وراء مكتبه، يتقدم منه قليلاً، ثم يهمس له:

"**حضرة الأستاذ، أحضرت لك المصنف المطلوب**"

ويردّ:

"**المصنف ليس لي، وإنما هو لك، لحفظ أوراقك**"

"**اعذرني، معك الحق، هو مجرد سهو، أحضرت لنفسي مصنفي، المصنف المطلوب، تفضّل**".

الموظف العجوز يمد يده، يتناول كأس الشاي، يأخذ منها رشفة، ثم يردّ:

"**لا، ليس هذا هو المصنف المطلوب، هذا لونه ورديّ، وهو لأوراق التعيين، هل نسيت لون المصنف الذي اشتريته عند تعيينك؟ المصنف المطلوب لأوراق الانتقال لونه أزرق**"

"**وماذا أفعل؟**"

"**لا شيء، اصبغ هذا باللون الأزرق، أو فكّر في شراء مصنف آخر أزرق اللون، ما رأيك؟**"

يوليه ظهره، ويخرج، يسرع، يعدو، يدخل على البائع.

"**أرجوك، بدّل لي هذا المصنف الوردي، أعطني مصنفاً أزرق بدلاً منه**"

ويردّ البائع:

"**ليس عندي مصنفات زرقاء**"

"**ولكن، أرجوك، انظر هناك على الرف مصنفات كثيرة**"

"**هذه مصنفات من نوع آخر**"

"**لا بأس، لا أريد تبديل هذا، أعطني مصنفاً جديداً، سأدفع لك ثمنه**"

"**للأسف، ليس عندي**"

الضجر يتسرّب إلى نفسه، يتذرّع بالصبر، يخرج من المحلّ، وهو يشتم في سرّه ويلعن، ولكنه يحاول إقناع نفسه، التعليمات هي التعليمات، والقانون هو القانون، لنفرض أنها مجرد تعليمات اخترعها ذلك الموظف العجوز، ليكن، من أجل التنظيم والترتيب، لا بأس.

يمضي نحو بائع آخر، على الرصيف المقابل، يقتحم المحل.

"**أعطني مصنفاً أزرق اللون**"

البائع منهمك في تسليم أحد الأشخاص عدداً من الطوابع، يعيد السؤال، والبائع لا يردّ، يدرك أنه تسرّع، يقف، ينتظر.

البائع يودّع الرجل بلسانٍ زرب، يحمّله التحيات إلى أبيه وأخيه وعمّه، ثم يلتفت إليه يسأله:

"**نعم، ماذا طلبت؟**"

"**مصنفاً أزرق**"

ويردّ عليه:

"**ولِمَ هذه العجلة كلها؟ كدت أخطئ في عدّ الطوابع**"

"**الحق معك، اعذرني**"

"**والآن نعم، ماذا طلبت؟** "

"**مصنفاً أزرق**"

يوليه ظهره، يلتفت إلى رف، وبهدوء، يقلب مصنفات كثيرة، ثم يستل مصنفاً أزرق اللون، ولكنه باهت، كأنما مرّ عليه دهر، يناوله إياه، ينظر إليه، البائع يعلّق:

"**هذا آخر مصنف، ليس عندي سواه، وثمنه خمس ليرات**"

"**ولكني اشتريت هذا المصنف بثلاث ليرات فقط من عند جارك**"

ويردّ البائع محتدّاً:

"**هات، هات المصنّف، لن أبيعه، اذهب إلى جاري**"

"**لا بأس، أمري لله، تفضّل**"

ويناوله قطعة من فئة الخمس والعشرين ليرة.

ويردّ البائع:

"**ليس عندي صرافة، أعطني خمس ليرات**"

ينظر في حافظة نقوده، هناك قطع من فئة الخمسين، وبضع أخريات من فئة الليرة الواحدة، يعدّها، فإذا هي أربع ليرات فقط، يدسّ يده في جيبه، فيعثر بنصف ليرة، يسأله:

"**عندي أربع ليرات ونصف الليرة، هل تكفي؟**"

"**أخي، افهم مني، المصنف ثمنه خمس ليرات، لا تنقص قرشاً، ما في عندك الله معك، اذهب، إذا شئت اصرف وارجع**"

"**ولكن أنا لا أعرف أحداً هنا، أنت صاحب المحلّ والأولى أن يكون عندك بقية المبلغ**"

البائع يصيح:

"**ما عندي، ما عندي**"

"**لماذا ترفع صوتك؟**"

"**لأني صاحب الحق، سأرفع صوتي، أنت من الصباح تعالجني وتتعبني، صدّعت رأسي، اخرج من دكاني**"

يرقبه بصمت، ليس الآن وقت اللجاج والخصام، وأنت جئت إلى العاصمة لتقديم أوراق انتقالك، لا لتخاصم هذا أو ذاك، ليس أمامك إلا الصبر، ولكن ماذا حلّ بي؟ ما هذا الجبن؟

ويدخل المحل رجل عجوز، ليقول:

"**أعطني علبة تبغ**"

ويفتح حافظة نقوده، وإذا هي مملوءة بفئات نقدية ورقية مختلفة، فيتقدم منه بالسؤال:

"**من فضلك، تكرّم عليّ بصرافة خمس وعشرين ليرة**"

ويخرج من المحل، يتأبط المصنف الأزرق الباهت، وهو يحث الخطا على الرصيف نحو مبنى الوزارة.

يقرع الباب، ويدخل على الموظف العجوز، يمدّ إليه يده بالمصنف والأوراق، الموظف العجوز يشير إليه أن اقعد وانتظر، وهو يقرأ في أوراق أمامه، ويتتبع أسطرها، ونظارته الطبية واقفة على أرنبة أنفه، وكأنها تكاد تقع.

يلتفت، يجد كرسياً بجوار الجدار، يقعد، يلتقط أنفاسه، ينظر إلى ساعة يده، الثانية عشرة، كيف مرّ الوقت؟ لا يكاد يصدّق؟ ولكن، لا بأس، ما تزال هناك ساعتان، بل ساعتان وربع الساعة.

الموظف العجوز يقلّب الأوراق، يعيد النظر فيها، والنظارة الطبية تقف على أرنبة أنفه، وهي توشك على السقوط.

النافذة وراء الموظف العجوز مفتوحة على حديقة الوزارة، الأشجار الصنوبرية زاهية الخضرة، متألقة بمطر الليلة الفائتة، والشمس تسطع من بين فرجات في الغمام، الجو الشتوي ممتع، والغرفة دافئة كل الدفء.

الموظف العجوز يضع النظارة عن عينيه، يمسح النظارة، يدعك عينيه، يتثاءب، يتحدث:

" في كل المحافظات لا يعرفون كيف يعدّون الكتب أو القرارات أو الرسائل، لابدّ في كل مرة من إرسال المعاملة ناقصة، ورقة هنا أو ورقة هناك، وخذ البريد وهات البريد، والوقت يضيع سدى، والجهد يضيع، لا أعرف كيف يعمل الموظفون هناك؟"

القلق يزعزعه، هل نسي الموظفون في محافظته شيئاً ما؟ لا يعقل، هل أخطؤوا في شيء؟ ولكن رئيس المديرية بنفسه دقّق الأوراق، ووقّع عليها، وبعد رأي وجهد شديد سلّمه الأوراق باليد، أكّد ضرورة إرسالها بالبريد الرسمي، هكذا تقضي التعليمات، ولكنه أمام إلحاحه، ورغبته في الإسراع، أجاب المدير طلبه، وسلمه الأوراق باليد، لا يعقل أن يكون فيها أي نقص أو خطأ.

ويلقي القلم من يده، يطوي الأوراق، ثم يقول له:

"أهلاً بك يا بني، هات ملفّك"

يشعر بالغبطة، ينهض إليه، يتقدم منه بهدوء:

"تفضل حضرة الأستاذ"

يمدّ الموظف العجوز يده إلى الملف، وهو يسأل:

"**هل سجّلت الملف في الديوان؟**"

"**لا**"

وترتد اليد بصورة آلية، ويأتي الجواب سريعاً:

"**من المفروض أن تكون قد سجلته في الديوان أولاً**"

يخرج من الغرفة، يمضي في الممر، أبواب كثيرة مغلقة، رئيس الدائرة، معاون الرئيس، المدير، المحاسب، مساعد المحاسب، غرفة المحفوظات، ولكن، أين الديوان؟ يصعد إلى الدور الأول، إلى الدور الثاني، يعود إلى الدور الأرضي، يهبط إلى القبو، آه، ههنا الديوان.

يتقدم من الموظف بأدب:

"**إذا سمحت، أرجو تسجيل هذا الملف**"

ويشير الموظف بيده إلى موظف آخر في عمق الغرفة، فيتجه إليه، يحييه، يناوله الملف.

ينظر الموظف في الملف، ويردّ:

"**هذا الملف لا يمكن تسجيله**"

"**لماذا؟**"

"**أنت حملته باليد من مديرية المحافظة إلى ديوان الوزارة في العاصمة، وهذا غير قانوني**"

"**والحلّ؟**"

"**سلّمه باليد إلى المدير القانوني**"

"**ولكن هو الذي أرسلني إليك لتسجيله**"

"**أعده إليه**"

"**وإذا لم يقبل استلامه؟**"

"**ترجع به إلى محافظتك، ومن هناك يتم إرساله بالبريد الرسمي، وهذا هو الأفضل**"

يخرج مكدوداً، لم يتوقع شيئاً من هذا؟ ينظر إلى ساعة يده، الثانية عشرة والنصف.

يدخل على الموظف العجوز بأدب زائد

"حضرة الأستاذ، أنا، أنا حملت الملف من مديرية المحافظة بنفسي، وأرجو منك التكرم بقبوله"

"ولم تخبرني بذلك من قبل"

"الحق معك، أنا آسف"

الموظف العجوز يرفع النظارة عن عينيه، يدفع ظهره إلى مسند المقعد، يبدي تذمره، ثم يضيف:

"هل تعرف؟ أستطيع الآن رفض طلبك وردّك إلى محافظتك كي تسلّم ملفك إلى ديوان المديرية هناك، ويأتينا بعد يومين أو ثلاثة بالبريد الرسمي"

ويدعك عينيه، يمسك نظارته، ثم يتابع كلامه:

"ولكني أود مساعدتك، هات، هات الملف"

ويتناول منه الملف، يرميه إلى جانبه على المكتب، ثم يقول له:

"تعال غداً، بعد الحادية عشرة"

يحار في أمره، يتردد، يظل واقفاً في مكانه. الموظف العجوز يقول له:

"ماذا تريد أيضاً؟ هل تتوقع أن أترك العمل الذي بين يديّ لأطالع لك ملفك؟ هل تظن أني متفرع لك وحدك؟ أنت لا تعرف، يجب أن أقرأ الملف ورقة ورقة، وأراجع كل ورقة كلمة كلمة، ثم لابد من صوغ المطالعة، وإعداد الحاشية، على كل حال، إذا شئت فارجع إلى محافظتك، وتعال بعد أسبوع"

"لا، لا، أرجوك، سأراجعك غداً، أنا أشكرك"

ويخرج من باب الوزارة.

يتغير مجرى التفكير كله، تبدأ الآن رحلة البحث عن فندق، والتفكير في النوم والطعام والشراب وتمضية الوقت حتى الحادية عشرة من يوم غد.

- ٢ -

في الحديقة المقابلة لمبنى الوزارة يقعد على كرسي حجري، الشمس تسطع من خلال الغيوم فتمنحه دفئاً لذيذاً، وتسكب شعاعاتها الذهبية على أشجار الصنوبر والمرج الأخضر والممرات الحجرية. الحديقة تتألق في بهاء شتوي بهيج.

ما أحلى الحياة، وما أجملها.

وينظر إلى ساعة يده، الحادية عشرة إلا خمس دقائق.

ينهض، يمضي إلى مبنى الوزارة، يجتاز الشارع إلى الرصيف المقابل، وهو يخطو نحو مدخل الوزارة، وإذا صبيّة تطالعه بقوامها الفاره، وهي قادمة على الرصيف تجاهه، قميص مشدود على الصدر النافر، مفتوح حتى فجوة النهدين، وبنطال ضيق، يلتف على الفخذين التفافاً، ومشية ذات إيقاع، تصحبها ارتجاجات واهتزازات. وعينان تنفحان ربيعاً دافئاً، وقد لونت الشفاه بما يثير، وخطّت خطاً بلون داكن يرسم أبعاد الشفتين وحدودهما، وشعر كالشمس الساطعة مرسل على الكتفين، لا أشهى ولا أحلى.

وتمرّ بك، هسيس حركتها، وقع مشيتها، صدى عبورها بجوارك، شذى عطرها الفاغم، كل أولئك يذهلك عن نفسك، وتمضي، عطرها ما يزال يدعوك.

ولكن، ماذا تفعل؟ أين أنت منها؟

وتمضي، تدخل مبنى الوزارة، تحث الخطا إلى الموظف العجوز.

وكالعادة، يقرع الباب بهدوء، ويفتحه ويدخل، ولكن لا أحد، لا كأس الشاي، ولا أوراق ولا ملفات ولا نور مضاء، كأن لا أحد.

يرجع، يحسّ كمن اقتحم مقبرة، يقف في الممر، يتوقع خروجه من هذا المكتب أو ذاك. الأبواب مغلقة، والممر يمتد ويمتد.

الآن بدأت ملامح العجوز تتضح، وجه غليظ، عينان غائرتان، والحدقتان سوداوان كابيتان، تبدوان من وراء النظارة الطبية كبيرتين، كأنهما تفترسان، تحت العينين دكنة سوداء، وانتفاخ راعب، والجلد عند الفكين متهدل، والفم يمجّ الحروف عندما يتكلم مجّاً، كأنما يلوك الكلمة ثم يقذفها، وعند زاويتي الفم بعض الزبد، وفي الشفتين زرقة قاتمة.

ماذا يفعل؟ هل يقرع أحد الأبواب ليسأل عنه؟ هل يرجع إلى الرصيف لعله يرى الصبية ثانية؟ هل يقعد في الحديقة؟

يخرج إلى مدخل الوزارة، يرجع، يصعد إلى الدور الأول، إلى الدور الثاني، يهبط إلى الديوان، وجوه تلقاه هنا وهناك، يحسّ بها جميعاً تتفرّس فيه، تسأله.

يرجع إلى مكتب المدير القانوني، يقرع الباب، يفتحه، ولكن لا أحد، يذهب في الممر ويجيء، يحسّ أنه مقيّد، مشلول، يتمنى مراجعاً آخر مثله يقرع غرفة الموظف العجوز، لعله يتسلى معه، يأنس به، ينتظران معاً، ولكن، لا أحد، كأنما خلق هذا الموظف العجوز له وحده.

وبعد؟ الساعة الحادية عشرة والربع.

لم ينم، ولم يتناول طعام الإفطار ولم يسترح، لا يذكر ماذا رأى من أحلام في ذلك الفندق القميء.

يخرج، يغادر مبنى الوزارة، يبحث عن مكان يتناول فيه شيئاً من عصير.

يرجع، يقرع ثانية باب المدير القانوني، يفتحه، ولكن لا أحد أيضاً.

يخطو في الممر، يمرّ بباب مغلق، يرجع، يحسّ كأنما سمع صوت الموظف العجوز، وراء الباب المغلق. يقرع الباب، يفتحه، ويدخل، وإذا الموظف العجوز غائص في مقعد وثير أمام مكتب أحد الموظفين، وهو يثرثر ويقهقه.

وقبل أن ينطق بشيء، يبادره قائلاً:

" **أهلاً بك يا بني، وقعت على طلبك، وأرسلته إلى مكتب السيد الوزير في بريد الساعة التاسعة، راجع مدير مكتب السيد الوزير**"

يحييه، ويشكره، يمدّ إليه يده، يصافحه بحرارة، يكرر له الشكر، ثم يخرج ينطلق في الممر، تستقبله أدراج، يرقاها رشيقاً، يحسّ كأنه يحلّق، البهجة تغمره، يذكر الصبية وعطرها الفاغم، حقيقةً الحياة جميلة، والأجمل أن تحسّ بتجددها، وأن ترى الأمور وهي تسير، بل تطير، وفق ما تتمنى.

ويدخل مكتب السيد الوزير، يحيي مدير المكتب، ويسأله عن ملفه.

مدير المكتب يجيبه على الفور:

"**لم تصلني هذا الصباح أي معاملة انتقال**"

يدهش، يكرر السؤال، ويأتيه الجواب:

" **أنا متأكد، العمل كله عندي، لم يصلني اليوم ولا أمس أي شيء، لعل المعاملة في البريد، وهي في الطريق**"

"**وماذا أفعل؟**"

"**راجع الديوان**"

يهبط على الدرج سريعاً، يحسّ بضيق واختناق، الجدران بعضها يكاد ينطبق على بعض، الممرات ضيقة وطويلة ولا تكاد تنتهي.

ويسأل في الديوان، ويأتيه الجواب:

"**لم نستلم اليوم أي معاملة من هذا النوع**"

يذهل، لا يجد ما يقول، يتردد، يعلّق :

"ولكن المدير القانوني أكد أنه أرسلها إلى مكتب السيد الوزير"

يسرع إلى مكتب الموظف العجوز، يقرع الباب، يفتحه، يدخل، وإذا هو وراء مكتبه، يطمئن، يستبشر خيراً، يسأل لاهثاً.

"عفواً أستاذ، لم أجد المعاملة في مكتب السيد الوزير"

"اسأل مدير المكتب"

"سألته"

"هي لابد عنده، عد إليه، المعاملات عنده كثيرة"

ويرجع إلى مدير مكتب السيد الوزير، الممرات تمتد، الأدراج تصعد، الجدران تكاد تنطبق.

لابد من الصبر.

ويرجع إلى الموظف العجوز، ويأتيه الجواب:

"ربما هي على مكتب السيد الوزير، لعل السيد مدير المكتب أدخلها في بريد الساعة التاسعة من غير أن ينتبه إليها، عد إليه، واطلب منه أن ينظر في مكتب السيد الوزير"

مرة ثالثة، يعدو، يرقى الدرج، التعب يعضّ ركبتيه، القهر يخنقه، ماذا يفعل؟ هل ينطح الجدار؟ هل يكسر الزجاج؟

ويأتيه جواب مدير مكتب السيد الوزير:

"غير معقول، كل المعاملات أقرؤها، وأسجلها عندي، ثم أدخل بها على السيد الوزير. على كل حال تفضل انتظر. الساعة الآن الثانية عشرة إلا الربع، بعد قليل أدخل على السيد الوزير ببريد الساعة الثانية عشرة، وأخرج ببريد الساعة التاسعة".

يلتفت، ثمة مقاعد وثيرة، يقعد، يغوص في المقعد.

يحس بالارتياح. دورق ماء وكأس أمامه على طاولة صغيرة.

"هل تسمح؟"

"تفضل، تفضل"

يصب لنفسه قليلاً من الماء، يحتسيه، يحسّ بحنجرته المتيبّسة وهي تطقطق والماء يتغلغل فيها.

ينظر إلى ساعة يده، انتظار، انتظار، حيثما سرت لابدّ من الانتظار، كنت تتوقع العودة إلى بيتك وأولادك في اليوم نفسه، وها أنت ذا قد لا تعود بعد أسبوع، وليس ثمة غير ذلك الفندق القميء، لا تعرف كيف تنام ولا تشرب.

"**يبدو أنك مللت من التعليم، فلذلك تودّ الانتقال**" يفاجأ بسؤال مدير مكتب السيد الوزير، يطمئن إليه.

"**أكثر من عشرين سنة وأنا في التعليم الابتدائي، الأجيال، أكلتني مثل النمل جيلاً بعد جيل، ثم أدركت أن من حقي تطوير نفسي**"

ويرسل زفرة طويلة، ثم يتابع الكلام:

"**منذ ست سنوات انتسبت إلى الجامعة، في أربع سنوات نلت إجازة الحقوق بتقدير جيد جداً، وأنا معلم ورب أسرة وأب لثلاثة أولاد، وطوال العامين الماضيين كنت أتدرب في مكتب أحد المحامين**"

"**وهل ستفتح مكتباً للمحاماة؟**"

"**لا، سأنتقل إلى وزارة العدل**"

"**أتمنى لك التوفيق**"

ينظر إلى ساعة يده، ثم يحمل مصنفاً كبيراً ويدخل غرفة السيد الوزير، وماهي إلا هنيهات حتى يخرج حاملاً مصنفاً كالذي دخل به.

ثم يلتفت إليه قائلاً:

"**تفضل، انظر معي، انظر هنا في الزاوية اليسرى من كل ورقة، ستجد موضوعها، إذا عثرت على طلب انتقال فهو لك من غير شك، وإن كنت متأكداً من أنني لم أستلم أمس ولا اليوم أي طلب**"

يقلّبان معاً الأوراق ورقة ورقة، الأوراق تتناقص شيئاً فشيئاً، ضوء الأمل يخيب.

"**كما أكدّت لك، لا شيء**"

"**وماذا أفعل؟**"

"**طلبك عند المدير القانوني، عد إليه**"

"**ولكن أكد لي أنه أرسله إليكم**"

" **وأنا متأكد أنه ما يزال عنده، مرة أخرى، عد إليه**"

يعدو هابطاً على الدرج، يقرع الباب على الموظف العجوز، ويدخل.

"أرجوك، الطلب لم أجده"

"أنا وقعته في الصباح، وأرسلته إلى مكتب السيد الوزير، اذهب ابحث عنه"

ويرجع إلى مكتب السيد الوزير

"أرجوك، ساعدني، أنا جئت من محافظة الشمال يوم أمس، والمدير القانوني أجّلني إلى اليوم واعداً هو نفسه بالمساعدة، وقد أكد لي أنه أرسل إليكم طلبي، لا أعرف ماذا أفعل؟"

"اطمئن، لن تخرج اليوم من الوزارة إلا معك كتاب الانتقال موقّعاً من السيد الوزير"

"ولكن، الساعة الآن الثانية عشرة والنصف، وبريد السيد الوزير انتهى"

"اطمئن، أنا سأدخل بطلبك على السيد الوزير بنفسي، أنت أحضره فقط موقعاً من المدير القانوني"

"ولكن...؟"

"ارجع إلى المدير القانوني، واسأله ما رقم صدور طلبك عن مكتبه؟ أو كيف أرسله؟"

ويرجع، يفتح الباب، ويدخل، وهو يقول له:

"السيد مدير مكتب الوزير يسألك عن رقم صدور طلبي عن مكتبك"

الموظف العجوز يضع النظارة على عينيه، ينهض، يلف حول المكتب، يقف أمام صندوق خشبي على جانب المكتب، يشير إلى ملفات وأوراق كثيرة يحتويها الصندوق، ثم يقول:

"أنا، أنا وقعت على طلبك، ووضعته هنا، وطلبت من الآذن حمله إلى مكتب السيد الوزير مباشرة، طلبت منه ذلك بنفسي مساعدة لك، بدلاً من تسجيله في الديوان حتى لا يتأخر"

"ولكن السيد مدير مكتب الوزير فتش في بريد الساعة التاسعة وبريد الساعة الثانية عشرة، ولم يعثر على شيء؟"

"إذن، تعال أنت انظر هنا في الصندوق بنفسك، لعل الآذن نسيه، فلم يحمله"

ويقترب من الصندوق، يقلّب الملفات والأوراق، ينظر فيها، الأوراق والملفات كلها تفرّ من بين يديه، ولا شيء.

"**أكدت لك، أنا بنفسي طلبتُ من الآذن أَخْذَ طلبك إلى مكتب السيد الوزير**"

ثمة ورقة تبدو تحت الصندوق الخشبي الحاوي للملفات والأوراق، يرفع الصندوق عن المكتب، يسحب الورقة :

"**ها هو ذا طلبي**"

ضحكة بليدة، وتعليق مرّ:

"**ها قد ظهر الحق، انظر توقيعي، الآذن، لا شك في أن الآذن هو الذي وضع الطلب تحت الصندوق حتى لا يختلط بالأوراق الأخرى، ذهب ليعد لي كأس شاي، ثم نسي الطلب**"

"**لابأس، سامحه الله، وأنا أشكرك**"

ويمدّ إليه يده مودّعاً، فيعلّق:

"**على كل حال ستمرّ بي بعد توقيع السيد الوزير على طلبك، لأصوغ لك كتاب الانتقال، ثم تأخذه إلى الآلة الكاتبة لطباعته، وبعد ذلك يوقعه الوزير أيضاً، لذلك كله، لا اظن أنك ستنجز الكتاب هذا اليوم**"

"**سأحاول، مدير مكتب السيد الوزير وعدني بالمساعدة، وكل ما أرجوه هو أن تعد صياغة الكتاب ريثما أرجع إليك بالطلب موقعاً من السيد الوزير**"

"**صيغة الكتاب جاهزة**"

*

ويرجع إليه، يمد إليه يده بالطلب موقعاً من السيد الوزير، فيدعوه إلى الجلوس ريثما يصوغ الكتاب.

الموظف العجوز يكتب ويتكلم:

"**متى نلت الإجازة في الحقوق؟**"

"**منذ عامين**"

"**أنا نلت الماجستير في الحقوق منذ ست سنوات، الأساتذة الذين درّسوك هم زملائي**".

ويفتح درج مكتبه، ثم يسحب منه ملفّاً أزرق، باهت اللون، ثم يقول له:

"**انظر، هذا ملف انتقالي إلى وزارة العدل قبل ست سنوات، أي قبل أن تدخل أنت إلى الجامعة، ولكن الوزير في تلك الأيام رفض، وجاء بعده عدة وزراء وأنا أرفض رفع هذا الطلب إلى أحد منهم**"

ويصمت، ثم يضيف:

"**وبعد ذلك كله فلا أحد يعرف شيئاً عن هذا، سوى مدير مكتب السيد الوزير**".

*

حوالي الثانية والربع، يخرج من القبو وهو يحمل كتاب انتقاله موقعاً من السيد الوزير بعد أن وضع عليه في الديوان رقم الصادر.

- ١ -

المخرج يضع بين يدي مدير الإنتاج صور القصر، صورة صورة، واحدة للواجهة، وأخرى للشرفة، وثالثة للمدخل، ورابعة، وخامسة، ثم يؤكد له:

- لايمكن أن يكون التصوير إلا أمام هذا القصر

ويردّ مدير الإنتاج :

- ولكنه من طراز قديم

- لأنه كذلك، فنحن نريد التصوير أمامه.

هكذا يرد المخرج، فيسأله مدير الإنتاج:

- والمشاهد الداخلية ؟

- ليست مشكلة، يمكن أن تكون داخله، أو في استديوهاتنا.

مدير الإنتاج يتأمل الصور، ثم يسأل:

- وهل قابلتم صاحبه؟

يتكلم مدير التصوير، فيقول:

- أخوه صديقي، حدثته في الأمر عدة مرات، ووعدني خيراً.

ويسأل مدير الإنتاج ثانية :

- وصاحب القصر ؟

ويجيبه مدير التصوير :

- صاحب القصر مغترب، أمضى في المهجر حوالي عشرين سنة، رجع منذ شهر تقريباً، حتى يستقر في الوطن.

مدير الإنتاج يضم الصور بعضها إلى بعض، ثم يسأل:

- وكم تبعد القرية ؟

- أربعين كيلو متراً، فقط

مدير الإنتاج يعيد النظر ثانية في الصور، صورة صورة، ثم يتكلم:

– لا أريد مزيداً من النفقات.

يعلق مدير التصوير:

– صديقي أكد لي أن أهل القرية كلهم يمكن أن يتعاونوا معنا، يكفي أن يروا آلات التصوير، حتى يتطوعوا للعمل.

ويصمت هنيهة، ثم يضيف:

– وأعتقد أن صاحب القصر لن يأخذ منا أجرة التصوير لقصره، فهو غني، وقد يفتح لنا أبواب القصر، لنصور المشاهد الداخلية في غُرَفِـهِ.

مدير الإنتاج يرمي بالصور على الطاولة، وهو يقول:

– أعطوني فرصة يومين فقط، كي أفكر.

– ٢ –

زهرة تخرج من عيادتها، فيطالعها القصر، يسدّ عليها الأفق الغربي، كأنه دمّل، وسقفه القرميدي الأحمر قيح ينزّ.

تدخل سيارتها، تشغّل المحرّك، عليها أن تلفّ في ساحة القرية، لتمر أمام القصر، تحاذي سيارة الفولفو الحمراء الواقفة أمامه، ثمّ تمضي إلى الشمال، حيث دارها.

قبل عودة قاسم ما كانت تحسّ نحو القصر بشيء، شاهدته وهو ينهض على الطرف الآخر من ساحة القرية، مقابل عيادتها، تابعته وهو ينهض حجراً حجراً، ثم يعلو، ثم يسقف، كانت تحس به محض حجر مزعج، ولكن لا تعرف لماذا تراه الآن بعد عودة قاسم كالدمّل.

لعله الآن يراها من مكانه وراء ستارة إحدى النوافذ، وليكن، فليرها، ولْيُجَنَّ، إذا أراد.

– ٣ –

قاسم يرسل أخاه تيسيراً إلى عمه يعلمه برغبته في زيارته.

– لا، وألف لا، لا نريده في بيتنا.

هكذا صاحت زهرة بغضب. ويردّ والدها:

– لا يابنتي، هو أولاً ابن أخي، وابن عمك، وأنت ثانياً طبيبة، ومثقفة، والحمد لله، تزوجت، وعندك زوج وولد وبيت وعيادة وسيارة.

وتتكلم زهرة بعناد:

– هو ابن أخيك، كما قلت، ولكن أنا ليس لي رضا عن زيارته لك.

– لا يا بنتي، أعرفك عاقلة وواعية، واجبنا أن نستقبله، ونكرمه، وأتمنى أن تكوني هنا في بيتي، مع زوجك وولدك، لتشاركي إخوتك وأخواتك في استقباله، وسنعد له مائدة للعشاء، وسندعو أيضاً تيسير.

وتسأل بسخرية:

– وهل ستحضر له الطعام الجاهز بطائرة خاصة، أو ستقدم له البرغل والشنكليش والمحوّشة والشنينة ؟

يضحك الأب، وهو يجيب:

– الله يسامحك يا بنتي

– لا يا أبي، ما قصدتك أنت، أنا أعرف كرمك، أنا قصدته هو، لأنه اعتاد على الطعام الغربي.

ويعلق الأب:

– على كل حال، أحوالنا تحسنت، نحن، وأهل القرية كلهم، كنا لا نعرف اللحم إلا من العيد إلى العيد، أو في المناسبات، الآن، كل شيء متوفر، عشر محلات للجزارة صار في القرية، لا تخافي، سنقدم له أشهى الطعام، ولن ننسى أكلاتنا القديمة، سنضع منها على المائدة، ربما اشتاق إليها.

وتسأل زهرة بمرح:

– وهل ستكون المائدة على الأرض، أو على الطاولة ؟

– لا، مع وجود الطاولة والكراسي، سنضع الطعام على الأرض.

– ٤ –

في أثناء ارتشاف الشاي، بعد العشاء، يتكلم قاسم، وهو يتكىء على وسادة إلى جانب عمه:

– الحقيقة، ومن كل قلبي، والله، أسعدني زواج ابنة عمي زهرة من طبيب مثلها، وغداً يصبح أمجد ابنهما، إن شاء الله، طبيباً أيضاً، ويفتحون مستشفى في القرية.

ويردّ العم بهدوء :

– ولِمَ لا؟ كل شيء ممكن، ما كنا نحلم أن يكون عندنا في القرية عيادة وصيدلية، كنا إذا مرضنا نتداوى بأي شيء، وإذا تلف المريض وأشرف على الهلاك نقلناه إلى المدينة، وفي الطريق يموت قبل وصوله إليها.

قاسم يحتبي في قعدته، ثم يتكلم:

– كلامك صحيح يا عمي، ولكن، ماكنت أتوقع الهجرة المعاكسة من المدينة إلى الريف، أنا حتى الآن، مع سعادتي بزواج زهرة من الدكتور ماجد، بصراحة، لا أكاد أصدّق، ابن المدينة يتزوج ابنة الريف، ويترك المدينة ليعيش معها في الريف.

ويتكلم الدكتور ماجد:

–الآن لا فرق بين الريف والمدينة، هذا الفرق زال، مثلما رأيت، نحن في ريف أجمل من المدينة.

ويتدخل تيسير:

– حقاً، كما يقول الدكتور ماجد، حياتنا هنا في الريف أصبحت أجمل من الحياة هناك في المدينة، عندنا ماء وكهرباء ومدارس ومحلاّت.

قاسم يغير جلسته، فيضع رجليه تحته، ثانياً ركبتيه، يأخذ رشفة من الشاي، ثم يقول، وهو يصطنع المزاح، موجهاً كلامه إلى الدكتور ماجد:

– أنا أعرف الحقيقة، زهرة، يا دكتور ماجد، هي جذبتك إلى الريف

ويتكلم العم:

– الحقيقة، الدكتور ماجد فخر لنا، وللقرية كلها، نحن نعتز به لأنه صهر العائلة، ونعتز به أيضاً لأنه طبيب القرية.

ويتكلم الدكتور ماجد:

– صدقني يا أخي، منذ السنة الأولى، وأنا في كلية الطب، قلت لنفسي: هذه البنت ستكون من نصيبي، لما رأيت فيها من حشمة وحياء وذكاء وأخلاق عالية، ولكن أخشى ألا تصدّق إذا قلت لك، طوال خمس سنوات ما حكيت معها إلا فيما يتعلق بالدراسة، ولكن آخر سنة، وقبل التخرج، سألتها عن أهلها، وجئت مع أهلي، وخطبتها مباشرة.

قاسم يرشف آخر ماتبقى في كأسه من شاي، ثم يعود إلى القعود محتبياً، وهو ضائق بالقعود على الأرض.

سناء تعلّق :

– وبعد الخطبة بشهر، صارت له فرصة، فسافر إلى فرنسة في بعثة للتخصص.

ويضيف العم:

– وظلّ هناك سنة

ويتكلم الدكتور ماجد :

– وكان عندي هناك فرص كثيرة للعمل وفرص أكثر للحب والزواج، ولكن رجعت، من أجل زهرة.

– ٥ –

فور دخول زهرة إلى بيتها، تقول لزوجها:

– يا ليت هذا العشاء ما كان، ولا هذه السهرة

ويجيبها الدكتور ماجد:

– على كل حال، السهرة كانت في صالحنا

– ولكن أنت ما لاحظت، قاسم كانت عيناه طوال السهرة على أختي سناء، أنا أعرف، غداً، يطلبها من أبي

يلتفت إليها الدكتور ماجد، وهو يضحك ساخراً:

– إذا كان والدك قبل عشرين سنة ما زوَّجك أنت لقاسم، لمّا طلبك لنفسه، والآن، من غير المعقول أن يزوجها لقاسم.

وترد زهرة:

– على كل حال أحسّ أنه لن يستسلم، ولن يهزم، في ذهنه شيء ما، سيفعله.

– ٦ –

من شرفة القصر، قاسم يطل على ساحة القرية، وفي فمه الغليون.

– ياه، والله كبرتِ، وصرتِ مثل البلد، حتى الأطباق الفضائية ملأت الأسطحة، أين الحمام أيام الزمان، نصعد إلى السطح حتى نطيّره.

وينفث دخان غليونه

– ذهلت أول ما رأيتك، كنت أتوقع أن أقف في شرفة القصر، فأرى البيوت الطينية، والغبار يعج في الساحة، والدروب الضيقة تلتف بين البيوت، وكلها

معتمة، وقصري وحده المضاء، كنت أتوقع شراء مولد كهرباء خاص بقصري، وكنت أظن سيارتي هي السيارة الوحيدة في القرية. على كل حال، تظل سيارتي هي وحدها المختلفة عن كل سياراتهم، ويظل قصري هو الأفخم والأعظم. ليست مشكلة، كل شيء ممكن، إلا تلك اللوحة البيضاء اللعينة: (الدكتورة زهرة الحامد، طبيبة مختصة بالأطفال)، على كل حال، سوف نرى.

ويترك الشرفة، ويمضي إلى الداخل.

– ٧ –

في الصباح، وزهرة في عيادتها، يدخل قاسم:

– **صباح الخير**

تُفاجأ به زهرة، فترد :

– **صباح الخير، ولكن معذرة، أنا في العيادة، وعندي عمل**

– **وأنا جئتك في عمل**

– **ولكن أنا مختصة في طب الأطفال**

– **أعرف، أعرف، أنا جئت لمراجعة زوجك.**

تحدّق فيه، ثم تقول:

– **لا يا قاسم، أنت تعرف أن هذه عيادتي، وأن عيادة زوجي الدكتور ماجد في غربيّ القرية.**

يمضي إلى عمق العيادة، يستند إلى مكتبها، يتكلم بلهجة ناعمة:

– **لا يهم، اعتبريني مثل الطفل، ألم نكن أطفالاً، وكنا نلعب هنا معاً في ساحة القرية، وكنت ترمينني بالتراب.**

– **عفواً يا قاسم، أرجوك**

– **لا تقلقي، لن أزعجك، ولن تطول زيارتي، أنا ما جئت لزيارتك، أنا جئت إلى دار عمّي، بعد غيبة عشرين سنة، جئت لأسترجع ذكرياتي، هنا كنا نلعب، ونختبئ، هل نسيت؟ في الواقع أحسنت يا زهرة حين حولت دار أبيك إلى عيادة، فهي في وسط القرية، وموقعها ممتاز، وهي بعد ذلك مقابل قصري.**

– **قاسم، أرجوك.**

– **أنا عندي رغبة في استرجاع ذكريات الطفولة مع الدار ومعك، وأنت؟ أليس عندك رغبة؟ نحن أولاد عم، هل نسيت؟!**

وينفجر صوت راعش من ورائه:

– **العمى، أنت ابن العم؟ الله يخرب بيتك؟**

ويلتفت، وإذا أم خالد وراءه، تصيح به:

– **أين الشرف والنخوة عند ابن العم؟ أنت مثل الآغا والبيك، أنت أسوأ من الإقطاعي، اخرج، اخرج، أنا سوف أحكي لكل القرية عن فعلك.**

وينقطع صوتها الراعش، فيقول لها:

– **من أين خرجت لي ؟**

– **أنا هنا، أنا هنا من زمان، وسمعت كل كلامك.**

ويرد ساخراً :

– **أنت يا عجوز النحس ما متِّ؟ من عشرين سنة، لما تركت القرية، كان عمرك ثمانين سنة؟**

وتردّ أم خالد بصوت راعش:

– **يا قاسم، يا قاسم النحس، أنا أم خالد، وأم خالد لاتموت.**

– **وما عملك في عيادة الدكتورة زهرة ؟ مساعدة طبيبة أو ممرضة أو خدامة لمسح الأرض؟**

وتتكلم زهرة :

– **ياقاسم، لايحق لك مثل هذا الكلام، أم خالد هي أمنا كلنا، هي الداية التي ولدت أمك وأمي، وكل الأمهات في هذه القرية، وعلى يديها استقبلت إلى الدنيا كل أولاد القرية وبناتها، لايحق لك أن تقول هذا الكلام، أم خالد مثل أمك وأمي، وهي مقيمة هنا عندي، مكرمة معززة.**

وتصيح به أم خالد، وهي ترفع عصاها بوجهه:

– **هيا، اخرج يا قاسم النحس، هيا، خسارة فيك الحمل والولادة والتربية، أنت ولد عاق.**

ينفجر قاسم غاضباً، وهو يقول:

– **سأخرج، ولكن إلى الجرد، ولتشهد أم خالد، أنت السبب يازهرة، غداً القرية كلها ستقول: قاسم رمى نفسه من فوق صخرة العشاق، وانتحر، لأجل زهرة.**

زهرة ترد بهدوء :

- هذا الكلام سمعته منك يا قاسم قبل عشرين سنة، يوم رفض أبي تزويجك مني، لو كنت تريد الانتحار حقيقة لكنت انتحرت من زمان.

قاسم يتكلم:

- من حقك ألا تصدقيني، ولكن هذه المرة الأمر اختلف، أنا تغرّبت عشرين سنة، وبنيت هذا القصر، لأجلك، واليوم أنا ذاهب حقيقة إلى الجرد لأنتحر.

أم خالد تقهقه ساخرة:

- يا قاسم، اسمع مني هذه النصيحة، إذا أردت أن تنتحر، فارم نفسك من شرفة قصرك الذي بنيته من أجل زهرة مثلما قلت .

- ٨ -

تيسير أمام المرآة، والحلاق من ورائه يقص شعره، وعلى المقاعد الجلدية الحديثة، ثلاثة زبائن ينتظرون. مع طقطقة المقص، يسمع تيسير أحد الزبائن وهو يسأله:

- سمعنا أن قاسم خطب لنفسه ابنة عمك سناء، هل هذا صحيح يا تيسير؟

ويرد تيسير:

- الأسبوع الماضي كنا عندهم على مائدة العشاء، وأخي لم يقل أي شيء.

ويتكلم الزبون الأول:

- لا، لا، أخوك زارهم مرة ثانية، زارهم وحده، منذ يومين، بعد تلك الدعوة، وطلب سناء، وعمك اعتذر.

ويتكلم تيسير:

- والله لا أعرف

ويضيف الزبون الأول :

- هكذا حدثني ابن عمك عمر بنفسه.

الحلاق يطقطق بالمقص، وهو صامت. يعلق الزبون الثاني:

- ما عاد ابن العم يتزوج ابنة عمه، هذه عادة قديمة، انتهت من زمان.

ويضيف الزبون الثالث:

- هذه مشكلة المهاجر، لا يعرف ما يحصل في بلده.

الحلاق يمشط شعر تيسير بحركة آلية سريعة. مازال الزبائن يتكلمون:

- **ليس كل المهاجرين سواء، في القرية الشمالية مهاجر رجع من المهجر، فبنى معصرة زيتون حديثة.**

ويتدخل الحلاق، فيتكلم:

- **على كل حال، يبقى قاسم ابن قريتنا، ونحن لن نتخلى عنه، وهو لن يتخلى عنا.**

ويضيف الزبون الأول:

- **كلامك صحيح، والمال الذي جلبه معه أين سيذهب؟ سيكون لهذه القرية.**

ويعلق الزبون الثاني:

- **الله يهديه، ويفتح لنا مشاريع تفيد القرية.**

ويتكلم الحلاق:

- **قريتنا ما عادت بحاجة إلى شيء، صار عندنا ولله الحمد ثانوية كبيرة، وثلاث عيادات، وأربع صيدليات، وفرن آلي، ومكتب سفر لتنظيم حركة السيارات.**

ويعلق الزبون الأول:

- **ونسيت المدجنة التي أنشأتها الحكومة.**

ويضيف الزبون الثالث:

- **نحن بحاجة فقط إلى معمل ألبان.**

تيسير يضع في يد الحلاق أجرته، يشكره، يحيي الزبائن، ثم يخرج.

وفي إثره يخرج الحلاق، يناديه، يستوقفه :

- **أخي تيسير، أود أن أسألك.**
- **تفضل**

وينتحي به إلى جانب، خارج المحل، ثم يسأله:

- **هل علمت بزيارة أخيك للدكتورة في عيادتها؟**

تيسير يذهل:

- **لا، والله، ولماذا يزورها ؟**

الحلاق يهمس:

- **حاول الإساءة إليها، ولكن أم خالد هزّأته وطردته.**

تيسير يطرق، يشيح بوجهه عن الحلاق. الحلاق يتكلم:

– أخي تيسير، أنت رجل حكيم وعاقل، لست مثل قاسم، هو أخوك، من غير شك، ولكن الدكتورة زهرة ابنة عمك، لا تنس هذا، وهي بعد ذلك، دكتورة القرية كلها، هي طبيبة أولادنا كلهم، هي مثل أمنا أم خالد، ونحن لا نسمح لأحد بالإساءة إليها، ولا إلى أم خالد.

تيسير يتكلم بهدوء :

– أنا معك، وأتمنى أن يرجع أخي إلى المهجر، اليوم قبل الغد.

– لا، لا، أبداً، قاسم ابن قريتنا، ونحن لن نتخلى عنه، ونحن لنا أمل كبير فيك، وفي أخيك، كل ما نرجوه هو أن تساعده على فهم الواقع، حتى يدرك ماصرنا إليه من تغيير.

– ٩ –

في الطريق إلى المدرسة، أرتال الصبايا تمرّ أمام القصر. قاسم في الشرفة ينفث دخان الغليون. الصبايا يتهامسن ويتغامزن.

– هل رأيت الفنان الكبير؟

– لا، قولي الملياردير

– يظن نفسه عبقري زمانه.

– ما جلب معه من المهجر بعد عشرين سنة، غير هذا القصر، وهذه السيارة.

– كنت أظنه رجع ومعه الشهادات العالية.

– حتى شهادة سلامة من الإيدز ما معه.

– على كل حال السيارة ما عادت مفخرة، كل بيت في القرية صار فيه سيارة.

– وبعد هذا ما اختار غير نموذج قصر عمره مئة سنة.

– واختياره لون سيارته أسوأ

– أنا لا أعرف سبب اختياره اللون الأحمر الفاقع ؟

– هناك سبب واحد

– وما هو ؟

– قلة الذوق

وترنّ في أرجاء الساحة صدى قهقهات الصبايا، وهو ينفث دخان غليونه.

– ١٠ –

وفي العصر يحلو له أن يقعد في الشرفة، والغليون في فمه، ويمر به الفلاحون، فيتهامسون:

- يا خسارة، الغربة أفسدته

- في الأصل هو عاطل

- فرق كبير بينه وبين تيسير

- تيسير ربّاه عمّه حامد، أنت لا تعرف.

- وهو ؟

- هو سافر إلى المهجر وعمره سبع عشرة سنة، وبعد سنتين مات أبوه، الله يرحمه، وكان تيسير عمره عشر سنين، فرباه عمه.

- أبوه مثله، كل تفكيره، الله يرحمه، كان في المال، كان لا يعرف إلا القرش، حتى إني سمعت إنه كان يعمل بالربا.

- أخوه حامد ما هو مثله، رجل ربّى أولاده، وعلمهم، زهرة ما شاء الله دكتوره، وعمر مهندس، وسناء عندها السنة امتحان الشهادة الثانوية.

- والله يا جماعة، المال ما هو كل شيء.

ويحس قاسم برشقات أنظارهم، ويرى حركات أيديهم، وإشاراتهم، وهو في شرفة القصر، فيتركه، ويركب سيارته، ويمضي إلى الجرد.

- ١١ -

في الطريق من الجرد إلى القرية، الفولفو تنساب كالسمن. قاسم، وهو يقود الفولفو، يلتفت إلى أخيه، يسأله:

- وكيف عرفت أني في الجرد ؟

تيسير يرد:

- القرية كلها تعرف، أنت ما عدت تقعد في الشرفة، لافي الصباح، ولا في المساء، كل يوم بعد العصر الكل يراك وأنت تمضي إلى الجرد، ولا ترجع حتى آخر الليل.

- الحقيقة ماكنت أتوقع أن أرى الجرد وقد تحوّل إلى مقصف، حتى هذه الطريق العريضة ماكنت أتوقع أن تشق من ضيعتنا إلى رأس الجرد.

تيسير يعلّق:

– يبدو لي ما أعجبك شيء في قريتنا بعد رجعتك غير الجرد، أو بالأحرى المقصف.

– لا أنكر، المقصف شيء حضاري.

– من الطبيعي أن يعجبك المقصف، لأنه يذكرك بالمقاصف في المهجر، ولأنك ترى فيه أفواج السائحين والسائحات.

– صدقني، لم أذهب إليه إلا لأجل صخرة العشاق.

– صدقتك، ولكن عندما وجدت المقصف نسيتها.

– ولكن ، بحثت عنها، وما وجدت لها أي أثر؟ !

– لأن عشاق هذا الزمان ما عاد أحد منهم يفكر في الانتحار، العشاق الثلاثة الذين انتحروا قبل ألف عام مالهم مثيل، كل شيء تغيّر.

قاسم يرد بحماسة:

– صدقت يا أخي تيسير، كل شيء تغير، حتى أنت

ويرد تيسير :

– وما المانع؟ لي الفخر إذا أنا تغيرت مثل قريتنا، كل شيء يتغير، لاشيء يبقى على ما هو عليه، ولذلك، يا أخي، أرجو أن تقدّر التغيير الذي صرنا إليه.

– ولكن التغيير ما هو حميد دائماً، ولا سيما تغيير العادات.

– هل تقصد زواج ابن العم من ابنة العم ؟

قاسم يسأل بحدّة :

– ومن أخبرك أني خطبت سناء ؟

– وعلمت بزيارتك للدكتورة زهرة، وبإساءتك لها ولأم خالد.

– أريد أن أعرف من أخبرك ؟

– القرية كلها تتحدث عنك.

قاسم يرسل زفرة، يضرب بيده على المقود، ثم يقول:

– ليتني ما عدت إلى الوطن

– لا يا قاسم، الوطن هو لك، وأنت له.

– ماكنت أتوقع هذا كله

– لأنك ما قدرت حقيقة التغير، وما اعترفت به.

– والحلّ ؟

- الوطن كله مفتوح لك، تعمل، وتعيش مع الناس، وتتصل بهم، وتشاركهم الحياة

قاسم يسأل بحدّة :

- وأنت ؟

- أنا واحد من أهل القرية.

- ومعهم ؟

- نعم، أنا معهم، وأنت أيضاً، أنت واحد منا، ومعنا، هذا هو الطبيعي.

قاسم يأخذ من الطريق أقصى اليمين، يهدّئ من سرعته، يوقف السيارة، ثم يلتفت إلى تيسير، يسأله :

- لعلك لحقت بي إلى الجرد لأجل هذا الموضوع ؟

تيسير يصمت هنيهة، ثم يقول له:

- ولنفترض ذلك، ماذا ستفعل؟ لماذا أوقفت السيارة ؟

- سأرجع

- إلى أين ؟ إلى المقصف ؟

- لا، هذه المرة سأرجع، لأبحث حقيقة وبجدّ عن صخرة العشاق.

تيسير يمسك يد قاسم، يقول له:

- في الحقيقة، ما جئتك لأجل هذا الموضوع، وإن كان هو في نفسي

- وإذن ؟

- كما قلت لك، هناك ثلاثة رجال من العاملين في التلفزيون، هم بانتظارك في بيتي.

- والغايـة ؟

- يريدون تصوير مسلسل تلفزيوني، وأظن أنهم سيصورون بعض المشاهد أمام القصر، أو في داخله، لا أعرف بالضبط.

قاسم يتردد هنيهة، ثم ينطلق بسيارته، ولا شيء يقطع الصمت، سوى هسيس الريح وهي تتسرب من النوافذ المفتوحة.

الطريق تبدأ بالإشراف على القرية، تطل عليها، وغبشة الماء تكسوها غلالة ساحرة، تأتلق خلالها الأضواء.

– وما نـهاية المسلسل ؟

هكذا يسأل قاسم الرجال الثلاثة. فيجيب المخرج :

– الفلاحون يهجمون على قصر الإقطاعي بالفؤوس والعصي، يضرمون فيه النار، ويحرقونـه. ويخربونـه، ويصبح ركاماً.

– وهل تريدون إحراق قصري؟ وتدميره ؟

المخرج يضحك:

– لا، اطمئن، هناك أساليب وخدع تصويرية كثيرة، قصرك مصون، حتى الغبار لن ينالـه.

– والإقطاعي؟ ما مصيـره ؟

ويتكلم المخرج:

– الإقطاعي سيـهرب، يغادر البلاد، ويهرب معه أولاده.

يتأملهم قاسم قليلاً، ثم يسألهم:

– ولماذا لا نجعل الإقطاعي ينتحر، يرمي بنفسه من شرفة القصر، مثلاً، ولماذا لا نجعله عقيماً، لم يرزق بولد؟

ويتكلم مدير الإنتاج:

– فكرة معقولة، سنعرضها على المؤلف وكاتب السيناريو.

ويضيف قاسم:

– وفي هذه الحالة لا ضرورة لإحراق القصر، وتدميره، لماذا لا يبقى عامراً ؟! ويكون الإقطاعي قد ترك وصية، يوصي فيها بتحويله إلى مستشفى.

وهنا يتدخل مدير التصوير فيتكلم :

–لا، هذا غير معقول، أنا في الأصل فلاح، وابن ريف، وعشت في عصر الإقطاع، الإقطاعي لا يفكر مثل هذا التفكير، وهذه بعد ذلك نـهاية تصالحية، لابأس في انتحار الإقطاعي، ولكن من غير وصية، ويستولي بعد ذلك الفلاحون على القصر، ويحوّلونـه إلى مستشفى.

ويتكلم المخرج:

– فكرة معقولة.

قاسم يتكلم:

– ولكن، لو كان للإقطاعي أخ، فمن حقه عندئذ أن يرث القصر، ويحتفظ به لنفسه، ويمنع الفلاحين من تحويله إلى مستشفى.

وهنا يتدخل تيسير، ويتكلم:

– أنا عندي فكرة، إذا سمحتم، من البداية نجعل هذا الأخ فقيراً، ويعمل مع الفلاحين، وعندما ينتحر أخوه، ويستولي الفلاحون على القصر، يتخلى عن حقه فيه، لصالح القرية كلها.

مدير الإنتاج يصيح مبتهجاً:

– شيء رائع، شيء رائع، ماكنت أفكر بمثل هذا.

يتكلم المخرج:

– قلت لك من البداية، من الضروري أن نخرج إلى القرى لنصور فيها، ولنعرف الحياة على حقيقتها، وليس وراء الكواليس وفي الاستوديوهات.

ويوقع قاسم عقد العمل مع البعثة التلفزيونية، يتعهد فيه بالسماح لهم بالتصوير داخل القصر، وخارجه، ويتنازل لهم عن مطالبته بأجور شغل القصر.

وينصرف أعضاء اللجنة، على أمل الحضور في الصباح، للاستفادة من إضاءة الشمس المشرقة على واجهة القصر.

– ١٣ –

مع خيوط الشمس الأولى، تشرف على القرية ثلاث سيارات، تحمل معدّات التصوير.

ومع دخول السيارات إلى الطريق المفضية إلى الساحة، يذهل مدير الإنتاج ومدير التصوير والمخرج.

حشود هائلة اجتمعت أمام القصر، أهل القرية كلهم تجمهروا، رجالاً ونساءً، شيباً وشباباً.

يدهش أعضاء البعثة، لا شك في أن تيسيراً قد دعا أهل القرية للحضور إلى الساحة ليقوموا بأدوارهم، ولكن كان عليهم أن يتخذوا من قبل بعض الترتيبات.

ويهبط مدير الانتاج ومدير التصوير والمخرج من سيارتهم، يخترقون الجماهير المحتشدة أمام القصر، يلقاهم تيسير. يسأله مدير الإنتاج:

– ماذا حصل ؟

فيجيبه، والدمع محبوس في عينيه :

- يمكنكم أن تبدؤوا التصوير حالاً.

ثم يوليه ظهره، ويمضي. ويتقدم مدير الانتاج، يتبعه مدير التصوير والمخرج.

تحت الشرفة، كان جسد قاسم غارقاً في رامة من الدم.

- ١٤ -

قصر سامق، واجهة تسيطر عليك، تذهلك، شرفة تطل على العالم كله، برج منيع.

وعلى مدخل القصر، لافتة بيضاء كبيرة، كتب عليها:

مشفى القصر التخصصي للأطفال

المحتــوى

طعم العصافير	٥
ماتت أمـي	١٧
الطفلة الشقراء	٣١
الملف الأزرق	٤٥
القصر	٥٩

المؤلـف

- أحمد زياد محبك
- من مواليد مدينة حلب عام ١٩٤٩
- تخرّج في قسم اللغة العربية وآدابها من جامعة حلب عام ١٩٧٢.
- نال الماجستير في الأدب العربي الحديث من جامعة حلب عام ١٩٨١
- حاز الدكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة دمشق عام ١٩٨٤
- عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق منذ عام ١٩٨٣
- عضو هيئة تحرير جريدة الأسبوع الأدبي منذ عام ١٩٩٦
- أستاذ لمادة الأدب العربي الحديث في جامعة حلب
- رئيس قسم اللغة العربية في جامعة حلب

صدر له

- حركة التأليف المسرحي في سورية، (دراسة) ١٩٨٢
- من الحكايات الشعبية، (مجموعة حكايات شعبية) ١٩٨٣
- يوم لرجل واحد، (مجموعة قصص قصيرة) ١٩٨٦.
- المسرحية التاريخية في المسرح العربي المعاصر، (دراسة) ١٩٨٩.
- حجارة أرضنا، (مجموعة قصص قصيرة) ١٩٨٩.
- الكوبرا تصنع العسل، (روايـة) ١٩٩٦.
- بدر الزمان، (مسرحية) ١٩٩٦.
- حلم الأجفان المطبقة، (مجموعة قصص قصيرة) ١٩٩٦.
- عريشة الياسمين، (مجموعة قصص قصيرة) ١٩٩٦.
- دراسات في المسرحية العربية، (دراسة) ١٩٩٧.